١٢

العالم العربي اليوم

قسم الخدمة العامة
بالجامعة الأمريكية بالقاهرة



العالم العربى اليوم

سلسلة بحوث فى العالم العربى اليوم

لنخبة من قادة الرأى فى مصر

عنى بنشره

قسم الخدمة العامة

بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

١٩٤٦

المطبعة العصرية بمصر

لصاحبها : الياس انطون الياس

٦ ـ الخليج الناصرى بالفجالة

فهرس

العالم العربى اليوم

كان فى مقدمة المسائل التى أثارت اهتمام الشرق الأوسط فى خريف عام ١٩٤٤ انشاء الجامعة العربية ، ولم يكن يخفى ما لهذا الحادث من أهمية كبرى وأثر بالغ فى تقدم البلاد العربية ومعاونة هيئة الأمم المتحدة فى تنظيم العالم كله، لذلك عنى قسم الخدمة العامة بالجامعة الأميركية بتنظيم سلسلة بحوث فى موضوع « العالم العربى اليوم » القيت فى شتاء عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ وتفضل بإعداد البحوث والقائها ومناقشتها ثمانية من الأساتذة المعروفين بسعة اطلاعهم ورسوخ قدمهم فى الموضوعات التى عالجوها على النحو التالى .

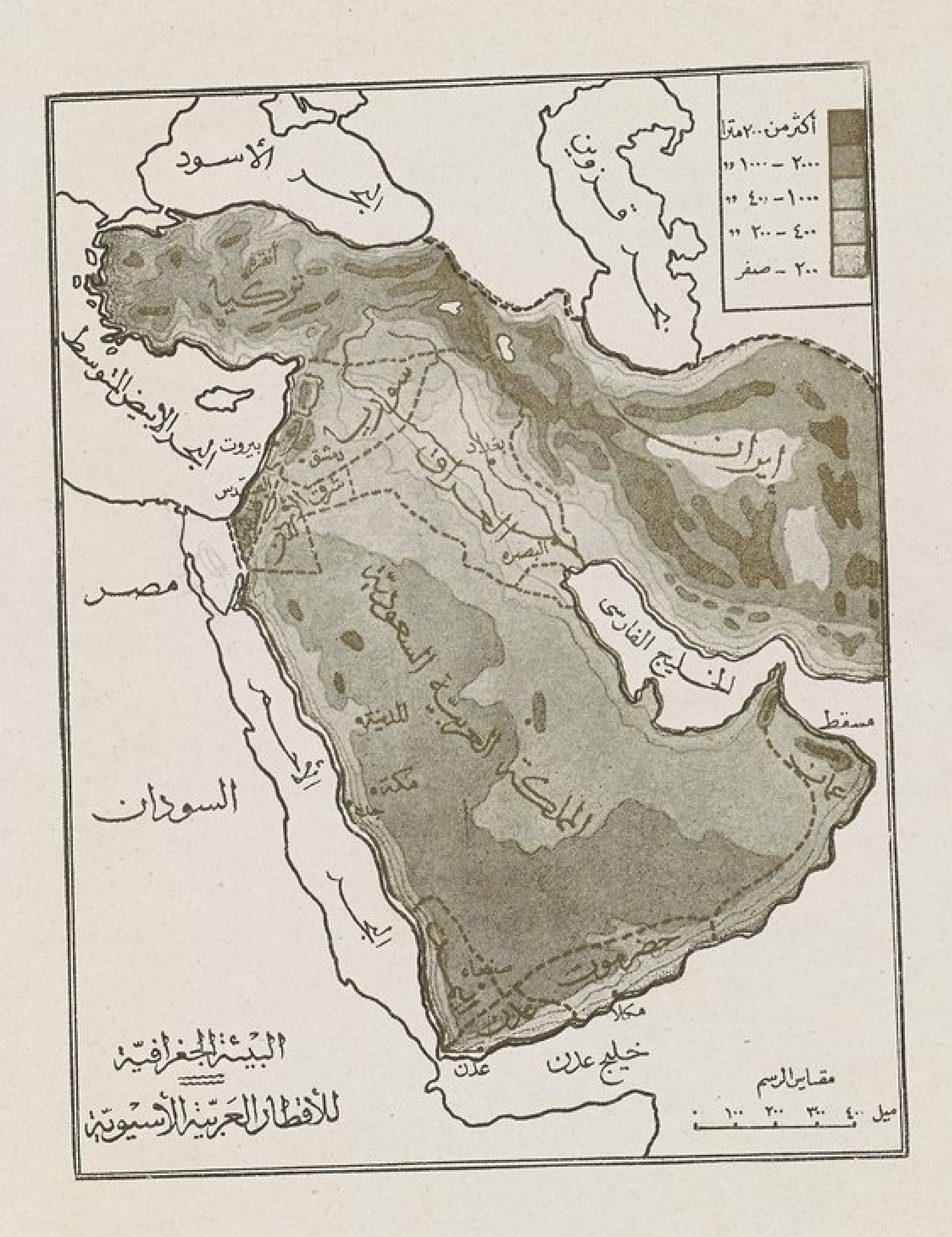
دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى استاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول	« البيئة الجغرافية للأقطار العربية »
دكتور عباس عمار المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول	« شعوب الأقطار العربية »
الاستاذ سامى السراج	« الحياة الاقتصادية فى البلاد العربية »
الأستاذ خليل بك ثابت عضو مجلس الشيوخ	« الحياة الاجتماعية فى البلاد العربية »
سعادة دكتور عبد الحميد بدوى باشا وزير الخارجية سابقاً	« النظم التشريعية وحقوق الانسان فى البلاد العربية »
صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوى رئيسة الاتحاد النسوي	« مكانة المرأة فى البلاد العربية »

دكتور ابراهيم بيومى مدكور عضو مجلس الشيوخ	« الحياة الثقافية فى البلاد العربية »
دكتور محمود عزمى المستشار الملكى المساعد	« الأسس التى يمكن أن يشاد عليها حلف عربى »

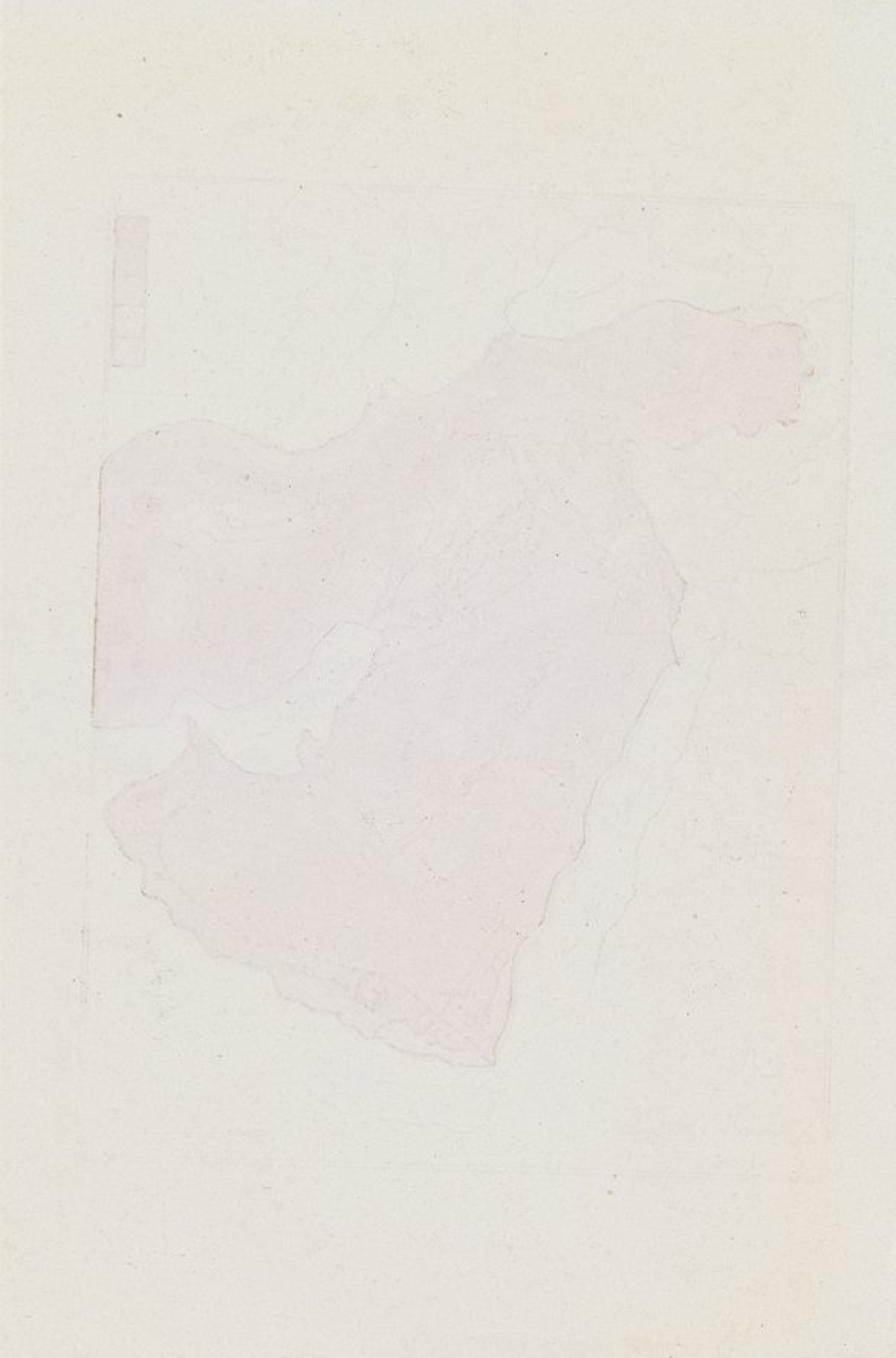
ويسر قسم الخدمة العامة أن أتيح له طبع خمسة بحوث من الثمانية التى ألقيت وجمعها فى كتاب واحد وهو إذ يقدمها للمهتمين بدراسة هذه الموضوعات يسجل فضل حضرات المحاضرين الذين قاموا متطوعين باعداد البحوث والقائها وتهيئتها للطبع ثم تصحيح مسوداتها ؟

وندل كليلاند

مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الأميركية بالقاهرة



البحر الأسود
بحر قزوين
تركيا
البحر الأبيض المتوسط
بيروت
دمشق
القدس
سوريا
العراق
بغداد
البصرة
إيران
الخليج الفارسي
مصر
السودان
المملكة العربية السعودية
المدينة
مكة
البحر الأحمر
عمان
مسقط
حضرموت
صنعاء
عدن
خليج عدن
أكثر من ٢٠٠٠ متر
٢٠٠٠ — ١٠٠٠ "
١٠٠٠ — ٤٠٠ "
٤٠٠ — ٢٠٠ "
٢٠٠ — صفر
مقاييس الرسم
ميل ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
البيئة الجغرافية
للأقطار العربية الأسيوية



البيئة الجغرافية للاقطار العربية الأسيوية

للدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تكاد تنتظم هـذه الوحدات العربية لتكون فى مجموعها ماجرى العرف على تسميته باسم « الشرق الادنى » ؛ أما من الناحية الجغرافية البحته فان هـذه الأقطار تدخل ضمن مايعرف تحت مصطلح « هضاب جنوب غرب آسيا » وهنا تسود اللغة العربية بحيث تصبح أهم الصفات المميزة ومن ثم كثر وشاع استعمال تعبير « آسيا العربية » . وليس من شك ان هذا القول يقوم على الاساس اللغوى لدرجة أعظم بكثير من الاسس الاخرى المشتركة مثل البيئة والتضاريس والمناخ والنبات والجنس والدين والتطور الحضارى والاقتصادى والسياسى .وفى الحق تكون هذه الاقطار فى جملتها وحدة جغرافية ذات صفات خاصة بها وفى الوقت ذاته تبدو صورتها بحيث تختلف عما يجاورها .

وقد كان الموقع الجغرافى ولا يزال أعظم العوامل الجغرافية التى حددت اشكال الحياة فى هذه الوحدة وقررت مصيرها منذ أقدم عصور تاريخ الحضارات البشرية الراقية . ولوقوعها فى وسط العالم القديم بين اوربا وآسـيا وأفريقية أصبحت ملتقى أهم الطرق التى كانت تصل بين اوربا والشرق الاقصى وكذا الطرق البرية التى تربط بين اوربا وأفريقيه . وقد حدد توزيع الصحارى واتساع امتدادها مواطن خطوط الانتقال والاتصال وبالتالى مركزها فى الشريط الضيق الذى يحف بصحراء سوريا والذى يعرف باسم « الهلال الخصيب » ، وفيه جرت المواصلات بين شواطىء البحر الابيض والخليج الفارسى ،وهكذا تطورت أهمية هذا الشريان الطبيعى حتى أصبح التزاحم والتنافس من أجل امتلاكه أو فرض السيادة عليـه من أهم ماجاء به التاريخ منذ أقدم العصور . ويمكن القول ان تاريخ الشرق الادنى هو بعينه تاريخ النضال بين سكان الحافات الجبلية فى الشمال والجماعات الصحراوية فى الجنوب بشأن هـذا « الهلال الخصيب » الذى يشـمل نطاقه مواطن عدد من أقدم الحضـارات البشرية وأرقاها كما شهد قيام ثلاث امبراطوريات عظيمة فى أشور وسومر وبابل ورأى عصور ازدهارها ومراحل انحلالها واختفائها.

وقد كان هذا النطاق الضيق بفضل حياته العشبية الغنية نسبياً يمثل قطباً مغناطيسياً تنجذب اليه عناصر السكان فى حالة ازديادها الطبيعى وتقصد اليه الهجرات الدورية الناتجة عن اثر الجفاف فى ربوع مراعى الاستبس فى بلاد العرب وروسيا وغرب آسيا ، كما جاءت اليه العناصر السامية المهاجرة عن طريق مدخليه فى الطرفين الشرقي والغربي . ويلوح ان الأودية الرئيسية لعبت دوراً هاماً إذ كانت تمثل بدورها خطوطاً ثانوية تؤدى فى النهاية الى مركز الجاذبية ومن أشهرها وادى الرمة الذى يبدأ فى نجد الغربية وينتهى قرب مصب شط العرب فى الخليج الفارسى ثم وادى سرحان الذى يبدأ فى اقليم الجوف ويقصد الى منطقة حوران وهضبة شرق الاردن. وما زالت طرق القوافل التى تخرج من قلب اقليم نجد تستخدم هذين الطريقين الطبيعين .

ويجمل بنا أن نذكر ان الطبيعة قد رسمت حدود أسيا العربية بعناية إذ منحتها خطوطا تضاريسية بارزة ونخص بالذكر حدها الشمالى الذى يتفق مع الحائط المرتفع الذى يمثل حافة هضاب آسيا الصغرى وايران ونقصد هنا جبال طوروس وامتدادها الشرقى فى مرتفعات كردستان،وتقوم جبال زاجرس بمهمة الحراسة على الجانب الشرقى . وفيما عدا برزخ السويس الضيق الذى يفصل بينها وبين أفريقية تطل أجزاؤها فى الشمال الغربى على البحر الابيض المتوسط وفى الجنوب الغربى على البحر الاحمر وفى الجنوب والجنوب الشرقى على البحر العربى وخليج عمان والخليج الفارسى .

وأهم مظاهر التضاريس فى هذه الوحدة الجغرافية هضبة بلاد العرب التى تظهر حافتها الغربية المطلة على البحر الاحمر على شكل حائط مرتفع على حين تتدرج ببطء نحو الشمال والشمال الشرقى حيث سهول الجزيرة والخليج الفارسى . غير ان هضبة بلاد العرب تغير مظهرها العام عند جانبيها فى الشرق والغرب إذ تظهر الجبال المرتفعة التى تمتد فى عمان والتى يرجح انها من حيث بنيتها ونظام تكوينها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظائرها فى جنوب ايران ،اما على الجانب الغربى فتظهر هنا جبال سورية ولبنان وفلسطين التى أثرت لدرجة عظيمة فى المناطق التى توجد فيها ، ومن ثم أصبحت من أهم مظاهر التضاريس وأبرزها . ويختلف اتساع السهل الساحلى فى محاذاة ساحل البحر الابيض المتوسط من جهة عن الاخرى بسبب اقتراب أو ابتعاد السلاسل الجبلية من الشاطئ . واذا كان السهل الساحلى يبدو ظاهراً ومتسعاً فى فلسطين فانه يظهر على

شكل شريط ضيق في لبنان حيث تقترب جداً جبال لبنان الغربية التي تحتضن الشاطىء وتمتد محاذية له .

والى خلف هذا النطاق الجبلى يشتد الانحدار نحو المنخفض الاخدودى العميق الذى يغلب على اتجاهه العام أن يكون من الشمال الى الجنوب حيث يفرغ مياهه فى البحر الميت (بحر لوط). والى شرق هذا الاخدود المنخفض تقوم سلاسل جبال لبنان الداخلية التى يعظم ارتفاعها واتساعها فى سورية على حين انها فى امتدادها نحو الجنوب حيث تظهر فى تلال مؤاب فى شرق الاردن تكون أقل ارتفاعا واتساعا ، ويلحظ ان الانحدار نحو الشرق يكون بطيئاً وتدريجياً .

ويظهر للباحث أن مظهر البساطة وقلة التعقيد التى تميز معالم التضاريس فى هذه الوحدة انما يرجع الى عامل البساطة التى يتميز بها تركيبها الجيولوجى . ذلك انه من الناحية الجيولوجية البحتة يمكن القول ان معظم هضاب جنوب غرب آسيا يتبع الهضبة الافريقية على حين ان عمان وأراضى الخليج الفارسى تتبع التاريخ الجيولوجى لايران المجاورة . ويمثل النطاق الجبلى الذى يتكون من جبال زاجرس ومرتفعات كردستان وطوروس الخط الفاصل بين النظامين الجيولوجيين الاسيوى والافريقى . وليس من شك ان هضبة بلاد العرب وصحراء سوريه يمكن اعتبارهما امتداداً للنطاق الصحراوى الافريقى العظيم ولا يقتصر التشابه على نوع الصخور ونظام الطبقات ووجود بعض المرتفعات والمنخفضات بل تكاد تتشابه لدرجة عظيمة فى مظاهر المناخ السائد . أما إيران وأرمينية وآسيا الصغرى وجميعها خارج هذه الوحدة الجغرافية فترتبط مع آسيا الوسطى سواء فى التاريخ الجيولوجى ومظاهر التضاريس ،حيث الجبال الالتوائية والاودية التى تفصل بين سلاسلها والتى تمتلىء بالتدريج بفضل ما يجىء اليها من الرواسب .

ويلحظ انه يصعب الفصل بين مظاهر التضاريس وآثار المناخ السائد فى ربوع جنوب غرب اسيا . واذا كانت المنحدرات الشمالية لهضبة بلاد العرب تبدو منبسطة متدرجة فانما يرجع ذلك الى المناخ الجاف والى بروز أثر عوامل التعرية الجافة وندرة المجارى المائية بصفة عامة . ولا تقوم السلاسل الجبلية بوظيفة الفصل بين الاجزاء المختلفة إلا فى حالات نادرة بل يغلب أن تقوم بهذه المهمة المساحات الكبيرة من الصحارى القاحلة الجرداء . ولا توجد الانهار الدائمة إلا فى مناطق الحافات الممطرة ومن خير الامثلة نهرا دجلة والفرات اللذان ينبعان فى الخارج ويستمدان مياههما من ثلوج عقدة ارمينية بعد ذوبانها . كذلك فى الغرب يوجد نهرا العاصى

والاردن وفيما عدا هـذه الانهار الدائمة الجريان وأمثالها تتكرر ظاهرة الاودية والسهول التى تمتلئ مجاريها بالمياه فى فصل الامطار ثم تجف متى حل فصل الجفاف الطويل .

وقد حددت الطبيعة طرق الانتقال عبر هذه الهضاب فمثلا كانت المسالك الرئيسية للاتصال بين حوض البحر الابيض المتوسط والاقاليم الموسمية فى جنوب اسيا وشرقها تتبع الطرق الآتية :

١ - طريق البحر الاحمر وما يتصل به من الطرق الثانوية على الجانبين .

٢ - طرق الخليج الفارسى التى كانت تربط بين ساحـل البحر الابيض المتوسط الشرقى وأراضى الجزيرة والخليج الفارسى وهـذه كانت بطبيعة الحال تجرى عبر « الهلال الخصيب » الذى يحده شمالا النطاق الجبلى المرتفع ويحف به من الجنوب الصحراء السورية العظيمـة وقد كانت حلب ومنطقتها على اتصال بالبحر الابيض المتوسط وكانت تؤدى اليها الطرق الآتية :

١ - الطريق من قيليقية عبر ممر بوغجه فى سلسلة جبال امان الى سنجق وحلب .

٢ - الطريق من الاسكندرونة عبر ممر بيلان الى حلب .

٣ - الطريق من ساحل البحر الابيض عبر عنق نهر العاصى ومن ثم الى حلب .

ولا يمكن المبالغة فى تقرير أهمية هـذه الطرق إذ يكفى أن نذكر ان التنافس بشأنها بلغ أشده بين دول الحضارات القديمة الراقية مثل مصر وبابل وآشور وايران واليونان والرومان وقد تجدد هذا الصراع في الوقت الحاضر ولم يعد الامر قاصراً على الوحدات السياسية التى يهمها الموضوع مباشرة بل دخلت الدول العظمى حلبة المنافسة .

أما فى بلاد العرب الاصلية فأهم الطرق :

١ - الطريق من البصرة فى شرق الاردن عبر الجوف الى حائل عاصمة النفود . وقد كان هـذا الطريق ولا يزال حلقة الوصـل بين الطرف الغربى للهلال الخصيب وأواسط بلاد العرب الشمالية .

٢ - الطريق من دمشق فى سوريه الى صنعاء فى اليمن ماراً بالمدينة ومكة وهذا الطريق بدوره كان يربط بين الطرف الغـربى للهلال الخصيب وقلب بلاد العـرب الجنوبية الغربية .

٣ - الطريق من البصرة عند رأس الخليج الفارسى الى صنعاء فى اليمن ماراً ببريدة فى نجد

ومكة فى الحجاز . وهكذا كان هذا الطريق يربط بين الطرف الشرقى للهلال الخصيب ومراكز الحضارة فى شمال بلاد العرب وجنوبها .

وقد كان الطريق الاول والثالث يتبعان لدرجة عظيمة أودية سرحان والرمة وقد سلكتهما أيضاً هجرات العناصر السامية نحو الشمال الى « الهلال الخصيب » أما الثانى فقد كان الطريق التجارى بين الهند والغرب وقد عظم أثره وذاعت شهرته بعد ظهور الاسلام .

ويلوح أن توزيع هذه الطرق الطبيعية قد جاء نتيجة المجهودات البشرية العظيمة التى أريد بها التغلب على الصعوبات الطبيعية ممثلة فى مظاهر التضاريس سواء كانت الجبال العالية كما هى الحال فى الحاجز الجبلى الشمالى أو بقصد اجتناب المناطق الصحراوية الجافة الموحشة التى تكاد تخلو من الماء والنبات مثل اقليم الدهناء أو النفود ذات الكثبان الرملية العالية أو الاحقاف ذات الكثبان الرملية الناعمة المتحركة أو الحرات ذات السطح الصخرى البركانى ؛ وهكذا جاء اختيار هذه الطرق للربط بين أجزاء الاقطار العربية الاسيوية بعضها بالبعض الآخر . وفى جميع هذه الحالات لعبت الواحات وأماكن الكلأ ومواطن الينابيع والآبار دوراً هاماً فى تيسير عمليات الانتقال على طول هذه الطرق المجهدة سواء فى السلم أو فى الحرب .

أما المناخ فيختلف باختلاف الموقع وخط العرض إذ تختلف الاجزاء الغربية مثلا عن نظائرها فى الوسط أو الشرق كما يختلف مناخ الجهات المعتدلة الشمالية عن نظائرها المدارية الجنوبية . وعلى ذلك نجد ان فلسطين ولبنان وسوريه والعراق والهلال الخصيب بصفة عامة تدخل ضمن قائمة الاقاليم التى تشترك بأنصبة متفاوتة فى المظاهر المناخية التى تتمثل فى نوع مناخ البحر الابيض المتوسط . وفى الواقع يمكن اعتبار مناخ هذه الاقاليم امتداداً لهذا النوع من المناخ فى غرب اسيا . أما معظم بلاد العرب فيتبع لدرجة عظيمة مناخ النطاق الصحراوى المدارى الافريقى ويمكن اعتبارها امتداداً لهذا النوع المناخى الافريقي فى جنوب غرب آسيا ؛ ولهذا كانت الامطار الشتوية في الاجزاء الشمالية تابعة فى أصلها ومسبباتها لحوض البحر الابيض المتوسط، وهى التى يرجع اليها الفضل فى التمييز بين الاجزاء المختلفة من حيث المقدرة على الانتاج الزراعى أو الرعوى أو الغابى، وبالتالى تحديد مواطن السكنى والحضارة والعمارة .

وتعتبر بلاد العرب الاصلية من أجف جهات العالم ويزيد جفافها كونها محاطة لدرجة عظيمة بنطاق من الحافات العالية التى تقف حائلا عظيم الاثر دون أن يتعدى أثر الرياح المحملة

بالابخرة النطاق الساحلى فى معظم الاحيان . ومن ثم كان نصيب الجهات الداخلية من الامطار ضئيلا للغاية . ولهذا تصبح بلاد العرب فى فصل الصيف شديدة القيظ بالغة الحرارة والجفاف. ولا يشذ عن ذلك سوى الحافات المرتفعة فى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى لأنها تصيب قدراً لابأس به من الامطار الصيفية الموسمية . وهكذا تكاد هذه العوامل تحدد مواطن الانواع النباتية الطبيعية وتقرر أوجه النشاط البشرى فى الاجزاء المختلفة . واذا كانت الزراعة ممكنة حيث يتوافر الماء فانها تركزت فى الجهات التى تصيب من الامطار قدراً كافياً كما هى الحال فى مواطن الانتاج الزراعى فى فلسطين ولبنان وسوريه واليمن وعمان ، وحيث يمكن الانتفاع بمياه الانهار كما هى حالة أراضى العراق الزراعيه ، وفى النهاية حيث توجد الينابيع ويمكن حفر الابار كما هى الحال فى الواحات المختلفة. أما الرعى فقد أصبح الحرفة الغالبة فى جميع مناطق الكلأ ، وتركت الجهات الجافة الصحراوية الرملية أو الحصوية أو الصخرية خالية أو شبه خالية من السكان ومن مظاهر النشاط البشرى بصفة عامة .

غير انه يظهر ان صور الاجزاء المختلفة من اسيا العربية قد تغيرت وتبدلت على ممر العصور. ويلوح ان أهم العوامل التى سببت هذا التغيير كانت تمت الى المناخ بصلة قوية كما جاءت به ابحاث هنتنجتن وبروكس وأمثالها فيما يتعلق بالتغيرات المناخية . ويكاد يتفق الجميع على ان هذا القسم من العالم قد شمله الجفاف التدريجى ، والادلة على هذا القول كثيرة ومتعددة فمثلا تظهر بعض الجهات التى كانت فى وقت ما تعج بالسكان وتحفل بمظاهر الثراء المادى والحضارة الراقية وكأنها قد فقدت ثراءها ورخاءها وهجرها كثير من سكانها ولم يبق بها سوى هؤلاء الذين ارتضوا لأنفسهم هذه الحياة القاسية فى ظل هذه البيئات الفقيرة المتأخرة . ويذهب هنتنجتن الى تعداد البراهين المتنوعة لدعم نظرية الجفاف فيذكر الجسور الرومانية القديمة التى تبدو الآن قائمة على جوانب المجارى والغدران الجافة المتربة فى سوريه ، وكذا بقايا الحياة الشجرية فى مناطق لا أثر للاشجار فيها الآن كما هى الحال فى شمال سوريه . ويضيف الى ذلك اثار العمارة والحضارة من منازل السكنى وبقايا الينابيع والآبار والنافورات والاعمال الهندسية المائية التى ما زالت قائمة فى قلب الصحراء وتنطق بالبرهان الملموس شهود عدل على ما كانت عليه هذه الجهات أثناء عمرانها وازدهارها وتوافر الماء بها .

واذا كانت بلميرا (تدمر) قد نجحت ابان القرن الثالث الميلادى فى ان توسع دائرة نفوذها وسلطانها ليشمل سوريه وأراضى الجزيرة وجزءا من القطر المصرى فانها الآن لاتضم

أكثر من مائة اسرة فقيرة مجهدة راضية بالكفاف فى بيئتها الفقيرة الضامرة . وقد كانت بطره (البطراء) من أعظم مراكز القوافل فى ذلك العصر ومع هذا فقد أصبحت الآن خاوية على عروشها وتركها أصحابها تندب حظها العاثر وجفافها القاتل كما اختفت أيضا مظاهر النشـاط التى كانت تظهر على طول طرق القوافل المتفرعة منها الى غزة وخليج العقبة والخليج الفارسى. ويجد الباحث فى الكتب السماوية من الادلة والشواهد مايؤيد الرأى الخاص بالجفاف التدريجى؛ واذا كانت أسباب مثل هـذه التغيرات المناخية مازالت مجهولة فانه قد أصبح مقرراً وثابتاً ان تاريخ هذه الاقاليم قد تأثر كثيراً بسبب هذه الدورات المناخية وما ترتب عليها من التغيرات سواء فى توزيع الحرارة أو درجة الرطوبة . وليس الامر قاصراً على اقطار الشرق الادنى بل توجد جهات أخرى تعرضت لمثل هذه الظاهرة ومن خير الامثلة جنوب غرب الولايات المتحدة. وليس من شك ان كمية الامطار فى الشرق الادنى قد أصابها الضعف بدليل ما جاءت به دراسات مستويات المياه فى البحار الداخلية والبحيرات مثل قزوين والميت وطبرية وأمثالها. ويضيق المقام عن سرد الادلة المتنوعة الاخرى التى تؤيد حدوث التغيرات المناخية حتى أصبح الامر حقيقة علمية مدعمة . وقد حاول هنتنجتن التاريخ لفترات الجفاف وذهب الى افتراض ان الدورة المناخية كانت حسب أبحاثه وملاحظاته تستمر نحو ثلثمائة سنة ولكن هـذا الفرض مازال معلقاً وهناك من يفترض للدورة المناخية فترة أقصر بكثير وقد دعا البعض الى قبول فترة ثلاث سنوات وجاء غيرهم بفترة احدى عشرة سنة ونادى آخرون بفترة مداها يتراوح بين خمسة وستة وثلاثين عاما .

هذه الظروف الجغرافية تركت اثرها فى اجزاء الاقطار العربية وحياتها البشرية .وفى الواقع يحق للباحث فى جغرافية آسيا العربية أن يعجب لهذا التناقض الظاهر بين أجزائها منذ بدء التاريخ اذ بينما رأت أجزاؤها الغربيـة والشمالية الشرقية تلك الحضارات القديمة الراقية التى بعثت النور والتقدم والعرفان الى البيئات المجاورة والتى ازدهرت وأينعت قرون عديدة نجد ان جزءاً عظيما من هذه الوحدة الجغرافية لم يكشف عنه النقاب تماماً إلا فى السـنوات الاخيرة رغم الجهود العظيمة التى بذلها المصريون القدماء والآشوريون والبابليون والقرطاجيون والفـرس واليونان والرومان والعرب أنفسهم مدى العصور لكشف الاجزاء الغامضة فى شبه الجزيرة العربية. ويلوح ان العوامل الجغرافية كان لها أكبر الأثر في هذا التناقض الظاهر وهي التى عرقلت كشف هذه الاجزاء وعطلت تقدمها ونهوضها . وتتلخص هذه العوامل فى شكل التضاريس ومظاهر السطح

ونوع الساحل وحالة المناخ والحياة النباتية . وكثيراً ما كانت السواحل لا تشجع على الاقتراب منها بتاتاً سواء بسبب ندرة تعاريجها أو ضحولة مياهها وكثرة الشعب المرجانية والصخور التى تجعل ملاحتها خطيرة وعسيرة ، أو بسبب قيام حافة الهضبة حائلا منيعاً بين الساحل والداخل ، أو بسبب كون الصحراء الرملية أو الصخرية تحف بها فتزيد من قفرها ووحشتها وظلمتها . كذلك وقف المناخ حجر عثرة وكثيراً ماحال دون الوصول الى بعض أجزائها فى الداخل :

والى جميع هذه العوامل الجغرافية مجتمعة يرجع ذلك الاختلاف بين الاجزاء من حيث درجة الحضارة والتقدم إذ بينما نرى مظاهر التقدم واضحة فى الاجزاء المعتدلة المناخ الوفيرة الامطار والمياه كما هى الحال فى الاقطار المطلة على ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقى ، وفى أراضى الجزيرة ، وفى اليمن المرتفعة الموسمية ، نجد فى الوقت نفسه ان معظم آسيا العربية وخاصة المناطق المدارية شبه الجافة والصحراوية مازال متأخراً ، ولو ان درجة التأخر تتفاوت من اقليم الى آخر فمثلا ساكن الجهات الصحراوية والمرتفعات الجافة مازال يعيش تحت رحمة الطبيعة القاسية ومثله مثل أضعف المخلوقات ، أما فى مناطق الرعى فقد بدأت علامات الحضارة المتقدمة نسبياً بعد أن أخذ سكانها يرعون قطعانهم ويحترفون الزراعة كلما أمكن ذلك ؛ وبالتالى أخذوا يفلتون من قبضة الطبيعة القاسية . ومثل ذلك القول ينطبق على سكان الصحارى الذين اتخذوا الجمل أداة لقطع الصحراء ونقل المتاجر بين الاجزاء ثم عمروا واستوطنوا الواحات ، واتخذوا منها محطات لخدمة قوافل التجارة فى السلم وتيسير هجرات الغزو والفتح كلما دعا الامر الى الاغارة والحرب .

هذا مجمل مقتضب للعوامل الجغرافية الاصلية وأثرها فى الاقطار العربية وحياتها بصفة عامة أما العوامل الجغرافية الاخرى الخاصة بتوزيع موارد الثروة المعدنية الطبيعية وكذا النتائج المترتبة على أهمية الموقع الجغرافى ومبلغ ارتباطه بالسياسات الدولية فى السياسة والاقتصاد والتجارة فقد أخذت تبرز وتسيطر حتى عظم شأنها وجل خطرها وأصبحت عماد العناية الظاهرة بشئون هذا القسم من العالم فى الوقت الحاضر .

ويمكن أن نشير الى ان هذا الميدان قد شمله النشاط بعد أن تكشفت ثروتة الحديثة وأصبح الزيت وتوزيعه واستثماره عاملا جديداً فى حياة الاقطار العربية وعلاقاتها مع الخارج .

الدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى

بعض المراجع الهامة

1 Dudley Stamp "Asia, an Economic & Regional Geog." London 1929.

2 Herbertson & How "Asia, the Oxford Survey of the British Empire Vol. II London 1914.

3 Huntington & Visher "Climatic Changes" London 1924.

4 Huntington E. "Pulse of Asia" New York 1919.

5 „ „ "Palestine & its Transformation" New York 1922.

6 Brooks "Climate through the Ages" London 1926.

7 Kendrew "Climate of the Continents" Oxford 1927.

8 Austin-Muller "Climatology" London 1931.

9 Campbell "Outline of Plant Geography" London 1926.

10 Philby "The Heart of Arabia" 2 vols London 1922.

11 „ "Arabia of the Wahabis" London 1928.

12 „ "The Empty Quarter" London 1933.

13 Doughty, M. "Arabia Deserta" London 1921.

14 Simon & Stein "Awakening Palestine" London 1923.

15 Sloan "Wanderings in the Middle East" London 1924.

16 Stoddard, L. "The New World of Islam" London 1935.

17 Semple, E. "The Geog. of the Medit. Regions, its Relation to Ancient History." London 1932.

18 Erskine "Transjordan" London 1924.

19 El Rihani, A. "Around the Coasts of Arabia" London 1930.

20 „ „ "Arabian Peaks & Deserts" London 1930.

21 Anstey "The Trade of the Indian Ocean" London 1929.

22 Rostovtzeff "A History of the Ancient World" Oxford 1930.

23 Childe, G. "New Light in the Most Ancient East" London 1929.

24 Publications of the American Geog. Society "Oriental Explorations & Studies" New York 1927.

شعوب الأقطار العربيـــة الأسيوية

للدكتور عباس مصطفى عمار
المدرس بكلية الآداب بجامعـــة فؤاد الأول

تمهيد فى المقياس الجنسى لتقارب الشعوب وتباعدها :

أثار التفكير فى تكوين جامعة الدول العربيـة ضرورة البحث فى الأسس التى يمكن أن تقوم عليها دعائم هذه الجامعة ، وكان طبيعياً أن تتناول الدراسة الناحية الجنسية لسكان تلك الدول ، باعتبار أن رابطة الدم كانت دائماً من أقوى الروابط التى تربط بين الأمم المختلفة ، وهى الآن الأساس الذى تقوم عليه فكرة « النظرية العنصرية » وما يرمى إليـه دعاتهـا من تقسيم العالم إلى مجموعات متقاربة أو متباعدة ، بحسب ما يربط بين أفرادها من صلة الجنس وما يجمع بينها من وحدة الأنساب . . . وإذا كنا نحن لا نوافق دعاة « النظرية العنصرية » على كثير ممـا يدعون إليه، ولا نراهم يستندون فى دعواهم إلى نتـائج البحث العلمى المجرد ، فاننا من غير شك لا ننكر أن وحدة الجنس عامل قوى فى ربط الأمم وانسجام العناصر ، بشرط أن تتوافر إلى جانبهـا تلك العوامل الأخرى التى أصبح لهـا فى الظروف العالميـة الحاليـة مكانة كبرى .

ولعل نعت الشعوب التى تسكن الجزيرة العربيـة — بأوسع معناها — والتى تعيش فى العراق وبلاد الشام بأنها شعوب عربية ، مما قديوحى بالوحدة الجنسية بين سكان هذه الأقطار المختلفة ، وهو اتجـاه شائع بين غالبيـة الكتاب فى موضوع الشعوب العربيـة وما بينها من صلات . . . هذا التفكير — فيما يظهر — قائم أساساً على وحـدة اللغة التى يتـكلمها سكان هذه الأقطار جميعـاً ، كما هو قائم على عامل الجوار بين هذه الشعوب المختلفة ، وعلى ما كان بينها من اتصال دائم واختلاط مستمر ، ممـا قد يؤدى إلى صهر العناصر المختلفة صهراً ربـمـا ينتهى إلى ما يشبه الوحدة الجنسية لهذه الشعوب .

وما نحب من جانبنا أن نتعرض الآن لمثل هذا الرأى بنفى أو تأييد انتظاراً لما ينتهى إليه هذا البحث من نتائج ؛ لكن علينا أن نتذكر دائما أن علماء الأجناس يرفضون الآن رفضاً تاماً اتخاذ العوامل الثقافية ، من لغة ودين وقومية ، أسساً يقوم عليها الربط أو الفصل بين الأجناس ؛ لأن مثل هذه العوامل مما يمكن فرضه على الأجناس المختلفة ، بحيث تكون هنالك وحدة ثقافية تامة بين أشد الجماعات تباعداً فى الجنس ، كما هو الحال فى فرض ثقافة إنجليزية على زنوج إفريقيا وفرض ثقافة فرنسية على سكان مدغشقر والهند الصينية ، وكما حدث فى اتساع دائرة الثقافة التى ارتبطت بانتشار الإسلام وما أدى إليه ذلك من فرض اللغة العربية والديانة الإسلامية على جماعات لا تمت إلى العناصر التى انتشر الإسلام على يديها بصلة جنسية ما .

وإذا كنا نلمس أحياناً لوناً من الارتباط بين بعض الطوائف الدينية وصفات جنسية معينة — كما هو الحال فى بعض الجماعات التى تدين بغير الإسلام فى شمال العراق وبلاد الشام — ، فان هنالك مسيحيين لا تختلف مميزاتهم الجثمانية عن المسلمين ، وهنالك من المسلمين أنفسهم من لا يمكن التفريق بينهم وبين الأرمن مثلا . . . وما الدين هنا فى الواقع إلا ظاهرة مرتبطة بالحوادث التاريخية التى وقعت فى هذا الجزء من القارة الأسيوية فى عهود حديثة نسبياً ، ومن ثم كان من الضرورى جداً أن نكون حريصين كل الحرص فى إعطاء أهمية المذاهب الدينية والطائفية ونحن نناقش مسائل الأجناس والقوميات .

يرفض علماء الأجناس إذاً عامل الثقافة أساساً للربط أو التفريق بين الأجناس ، ويؤكدون الآن ضرورة الاعتماد على الصفات الجثمانية فى هذا المجال : من شكل الرأس إلى صفات الوجه ، ومن شكل الشعر إلى أبعاد الأطراف ، مع إضافة صفات فسيولوجية وخصائص دموية يضعون لها أسساً مقررة ؛ بل إن هؤلاء العلماء ليغالون فى هذا الاتجاه ، فيخصون صفات جثمانية بالعناية ويعطونها المركز الأول فى التمييز بين الأجناس [1] ، على

(١) يعطى علماء الأجناس أهمية كبيرة لما يسمونه (النسبة الرأسية Cephalic Index) وهى نسبة عرض الرأس إلى طوله محسوبة بالمائة ، فاذا كانت تلك النسبة أقل من ٧٥ كان الرأس طويلا Dolichocephalic وإذا زادت على ٨٠ قيل إن الرأس عريض أو مستدير Brachycephalic وإن وقعت النسبة بين ٧٥ و ٨٠ فالرأس متوسط ، ويذهب غالبية العلماء إلى أن شكل الرأس أقل المميزات الجثمانية تأثراً بظروف البيئة ، ومن هنا جاءت أهميته كصفة أساسية للتمييز بين الأجناس

حين أنهم يقللون من أهمية صفات جثمانية أخرى كلون البشرة وطول القامة ، معتمدين فى هذا كله على مدى تأثر الصفة بعوامل البيئة طبيعية كانت أو اجتماعية ؛ فما دامت الصفة ثابتة لا تتغير تغيراً ملموساً فهى الصفة التى تبرز أهميتها باعتبارها صفة متوارثة تنحدر فى السلالات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء (١) . وما دام الأمر كذلك فقد أصبح من الضرورى أن نقتصد ما استطعنا فى استعمال المصطلحات الثقافية فى دراسة الأجناس ، مدركين تمام الإدراك ما قد يؤدى إليه التغاضى عن هذه الحقيقة من خلط كبير . فاصطلاح (كالساميين) الذى يشيع استعماله فى كتابة المؤرخين وكتابة عدد غير قليل من الأنثروبولوجيين ليس له معنى محدود فى الدراسة الجنسية ، وما هو فى الحقيقة إلا اصطلاح ورثناه عن الكتب الدينية أطلق أصلا على سلالة (سام) الذين ينتشرون فوق مساحة واسعة من الأرض لا يتجانس سكانها تجانساً يمكن أن يبرر وضعهم فى وحدة جنسية بالمعنى الدقيق . وكل ما يمكن أن نقوله عنه إنه اصطلاح يميز تلك السلالات التى تتكلم اللغات السامية من الآراميين والسوريانيين و . . . و . . . الخ فى الشمال ، والأكاديين والبابليين والأشوريين فى الشرق ، والعرب فى الجنوب ، والفينيقيين والعبرانيين و . . . و . . . فى الغرب ؛ أو بمعنى آخر سكان ذلك الاقليم الذى تحده مرتفعات طوروس وأرمينيا وإيران والخليج الفارسى والبحر الأحمر ومصر والبحر المتوسط بكل ما يدخل فيهم من عناصر جنسية متباعدة .

وما يقال عن الساميين يقال أيضاً عن العرب ، ذلك الاصطلاح الذى يضلل فى مدلوله الجنسى أكثر مما يضلل استعمال كلمة الساميين فى هذا المجال ، لأنه اصطلاح لا يختلط بالتقسيمات اللغوية وحدها ، بل يتعدى هذا إلى التداخل فى النواحى الثقافية الأخرى منذ ارتبطت اللغة العربية بالاسلام أو ارتبط الاسلام بها ؛ فمنذ قيام هذا الدين وانتشاره فى أوائل

---

(١) ربما كان من المفيد أن نثبت هنا تعريف الأستاذ (هوتن Hooton للجنس) :

"A race is a great division of mankind, the members of which, though individually varying, are characterized as a group by a certain combination of morphological and metrical features, principally non-adaptive, which have been derived from their common descent"

راجع :

Ernest Albert Hooton = Up from the Ape, London 1931, P. 397.

القرن السابع للميلاد أخـذت عناصر كثيرة لا تمت إلى سكان الجزيرة العربيـة بأية صلة جنسية تدّعى العروبة لنفسها، وتتلمس صلات تربطها فى الأنساب بالقبائل العربية عامة والقرشية منها بوجه خاص .. ولم يقتصر هذا الادعاء على تلك الجماعات التى تقرب من سكان بلاد العرب فى صفاتها ومميزاتها الجثمانية، بل إن هنالك عناصر من سكان الملايو ومن السودانيين تجهر بعروبتها وترجع بنفسها فى النسب إلى رسول الله ! !

على أننا إذ نرفض اللغـة كأساس من أسس التقسيمات الجنسية، فما يعنى هذا أننا ننفى أهميتها فى هذه الناحيـة نفياً باتاً، لأن وحـدة اللغة قد تكون عاملا يتداخل فى اختيار الأزواج، على اعتبار أن من الضرورى توافر التفاهم والانسجام بين الزوجين، واللغة واسطة ضرورية فى هذا المجال .. ما قصدناه إذاً هو ألا نأخـذ فى تقسيم الأجناس باللغة وحدها، دون أن نحسب حساباً لاحتمال فرضها على عناصر أخرى كانت لها لغتها الخاصـة وصفاتها المتميزة؛ وسنضطر كثيراً فى سياق البحث إلى استعمال مثل هذه المصطلحات الثقافيـة، على أن يكون مفهوماً دائمـاً أننا لا نعنى بها أقساماً جنسية متميزة، وإنما نقصـد الوجهة العامة مسايرين العرف الشائع فى كثير من الكتابات، وسنحاول فى دراستنا لشعوب الأقطار العربية الأسيوية أن نوضح بقـدر ما نستطيع العناصر المختلفة التى تتداخل فى تكوين الجماعات التى وحدت بينها عوامل الثقافة، مهتمين بالساميين والحاميين والعرب بوجه خاص.

ومن الضرورى لتكوين صورة واضحة عن الموجات البشرية التى أثرت فى سكان هذه الأقطار العربية المختلفة، أن نتذكر ما يشير إليه علماء المنـاخ من حدوث تذبذبات مناخية فى بعض العهود التاريخيـة، نتج عنها تعرض بعض هذه الأقاليم لفـترات جفاف ساءت أثناءها الظروف الاقتصادية، واضطربت خلالها الحالة السياسية، وتبع هذا كله حركات بدأت من مناطق الجفاف، وأثرت فى الأقاليم المجاورة تأثيراً نلمس جانبه الجنسى فى وصول تلك العناصر التي دفعت بها الصحراء العربية إلى مناطق الاستقرار فى أراضى الهلال الخصيب .. وحدوث مثل هذه الحركات لم يكن ليتطلب تغييرات مناخيـة عنيفة، إذ أن أقل جفاف فى مناخ إقليم كبلاد العرب الذى لا تصيبه إلا كمية محدودة جداً من المطر لا بد وأن ينبض له قلب الجزيرة العربية، فتنبعث منها هذه الموجات إلى حيث تطيب لها السكنى فيما يجاورها من الأقاليم. على أن هجرات سكان الأقاليم الصحراوية إلى الأراضى الزراعية لا يرتبط دائمـاً بعامل «الطرد» الذى

أشرنا إليه ، فهنالك عامل « الجذب » القائم على التباين بين غنى الأراضى الزراعية وفقر الصحراء ، هذا التباين الذى يغرى سكان البادية بالهجرة إلى مناطق الغنى بالطرق السلمية تارة و بالعنف تارة أخرى .

هذه الموجات فيما يغلب كانت تتخذ طريقها شمالا شرقياً إلى أرض الجزيرة ، أو شمالا غربياً إلى بلاد الشام ، وإن كان منها موجات تحركت إلى سهول العراق أولا ثم عادت فانتقلت كلها أو بعضها إلى بلاد الشام . . ومثل هذه الموجات لا يمكن حصرها جميعاً ، فيكفى أن نشير إلى تلك الهجرات التى ذهبت إلى بلاد الجزيرة ، و إلى هجرات الكنعانيين والفينيقيين والعبرانيين وغيرهم من الهجرات التى تحركت إلى بلاد الشام ، وهجرات النبط والقبائل الاسماعيلية ، ثم هجرات العرب الجنوبيين الذين اضطروا إلى أن يتحركوا شمالا ، نتيجة لتهدم (سد مأرب) فيما يروى المؤرخون أو لسوء الحالة الاقتصادية بسبب حدوث فترة من فترات الجفاف فيما يذهب أصحاب نظرية التذبذبات المناخية . . . وأخيراً تأتى الهجرات التى خرجت من شبه الجزيرة العربية مع انتشار الإسلام وتوسع الفتوح الاسلامية، والتى استمرت قروناً طويلة تغذى الأقطار العربية الاسلامية بعدد من القبائل العربية التى كان لها دون شك أثر ملموس فى سكان بعض هذه الأقطار (١) .

تأثر الشعوب العربية بالمجموعات الجنسية المحيطة بها :

والآن ،وبعد هذه المقدمات العامة الضرورية،ينبغى أن نحدد مركز شعوب الأقطار العربية الأسيوية من المؤثرات الجنسية المحيطة بها ، نظراً لما لمثل هذه المؤثرات من أهمية فى إعطاء تلك الشعوب الصبغة الجنسية التى تتميز بها ، ولما لها من دخل كبير فى إبراز نواحى الشبه والاختلاف بين العناصر التى تتكون منها هذه الشعوب .. والملاحظ أن هذا الاقليم يتصل اتصالا مباشراً

(١) يراجع فى تفاصيل هذه الموجات الكتب الآتية (على سبيل المثال) :

A.C. Haddon = The Races of Man, Cambridge 1929, Pp. 96-97.

" " = Wanderings of People, Cambridge University Press, 1911.

,C.U. Ariens Kappers = An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amsterdam 1934, Pp. 47-48.

بقارتى أوروبا وأفريقيا ، ولهذا نجد أن المشاكل الاثنولوجية والانثروبولوجية له لايمكن أن تفهم منفصلة عن الدراسة الجنسية لهاتين القارتين بحال من الأحوال . . لكن هذا ليس معناه إغفال أهمية موقع هذه الأقطار بالنسبة لمجموعات جنسية أخرى ، تقع من جهة الى شمالها ، حيث العناصر الأرمنية التى سنراها تؤثر فى سكان بعض هذه الأقطار تأثيراً محسوساً ، وتقع من جهة أخرى الى شرقها وجنوبها الشرقى ، إذ لايفصلها عن إيران مثلا غير الخليج الفارسى وخليج عمان ، ولا يفصلها عن الهند الا البحر العربى ، ولهذا كان لبعض سكان شبه الجزيرة العربية صلات جنسية بهذه المجموعات التى تسكن تلك الأقاليم المجاورة ، تظهر آثارها في شكل الرأس تارة وفى مميزات الشعر ولون البشرة تارة أخرى ؛ ومن هنا ظهرت فى سكان تلك الاقطار صفات تربطهم بسكان أوروبا الجنوبية ، وصفات تقرب من صفات العناصر الافريقية التى يجرى العرف بتسميتها بالحاميين ، هذا الى جانب مميزات أخرى تذكرنا ببعض مميزات (الدراڤيديين) وغيرهم من سكان الهند ؛ وفيما يلى أهم المجموعات التى تأثر بها الكيان الجنسى لهذه الاقطار :

١ – أما المجموعة الأولى فهى التى يطلق عليها علماء الأجناس اسم «جنس البحر المتوسط» ، أحد الفروع الرئيسية للمجموعة القوقازية أو الأجناس البيضاء ؛ وتتميز هذه المجموعة باستطالة الرأس أو توسطها ، وبالانف الضيق الذى يأخذ غالباً الشكل المستقيم ؛ وتميل البشرة الى السمرة كما تشتد سمرة الشعر مع تموج فى شكله ، أما القامة فمتوسطة أودون المتوسطة بقليل . واذا كانت مناطق توزيع هذه المجموعة أساساً هى حوض البحر المتوسط ، فان هنالك أذرعا منها امتدت الى الجنوب وأثرت فى الاقاليم الواقعة على جانبي البحر الاحمر ، بل ووصلت – فى رأى بعض الكتاب – الى أبعد من هذا جنوباً . . وليس من شك فى أن إحدى الطبقات الأساسية (ان لم تكن الطبقة الأساسية) فى التكوين الجنسى لكل سكان الأقطار العربية الأسيوية ترجع الى مجموعة البحر المتوسط هذه ، بل ربما كان من المفيد أن نلفت النظر الى ماسبقت الاشارة اليه من أن الساميين والحاميين اصطلاحات لغوية ، والى أننا اذا أردنا ارجاع المتكلمين الاصليين بهاتين المجموعتين من اللغات الى أصولهم الجنسية فسيرتبطون بعناصر البحر المتوسط أساساً ، لكن هذا لاينفى وجود مميزات تفرق بين مجموعة وأخرى ؛ جاءت نتيجة للمؤثرات التى خضعت لها كل مجموعة فى الوسط الذى اتخذته موطناً لها . . ومن هنا جاء التمييز بينهما

واعتبارهما فى رأى بعض الكتاب مجموعتين مستقلتين ، تغلب أولاهما فى أفريقيا الشمالية ، وتوزع الاخرى فى الجنوب الغربى لقارة آسيا بوجه خاص .

وما يستطيع الباحث فى شعوب الأقطار العربية ، التى توضع بوجه عام ضمن ما اصطلح على تسميته بالمجموعة السامية أن يغفل المؤثرات الحامية التى لابد وأن تكون بعض جهات شبه الجزيرة قد أصابها منها نصيب غير قليل ،فالجزء الجنوبى الغربى لبلاد العرب بوجه خاص كان دائماً قوى الاتصال بأفريقيا الحامية ، وما كان فى الامكان تبعاً لهذا أن يخلص من نتائج هذا الاتصال ، بل إن من الكتاب من يذهب الى أن المميزات التى أصبح الحاميون يتميزون بها انما اكتسبت فى بعض الجهات الجنوبية للجزيرة العربية [١] ، كما يذهب كاتب مثل الاستاذ (كيث) الى أن تلك العناصر الحامية كانت فى وقت ما أوسع انتشاراً فى البلاد العربية ، ثم جاءت مؤثرات قوقازية أخرى من الشمال ، دفعتها أمامها وضيقت دائرة انتشارها ، ومثلت كثيراً من صفاتها ، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تقضى عليها قضاء تاماً ، إذ سنرى تلك الصفات الحامية - سيما فى شكل الشعر ولون البشرة ومميزات الوجه - واضحة فى سكان الاقليم الجنوبى ، وضوحاً يصعب معه فى بعض الأحيان التفريق بينهم و بين عناصر من المجموعة الحامية الافريقية كالهادندوه و بنى عامر مثلا [٢] .. واذا كنا قد رأينا أن التفريق بين الشماليين والجنوبيين من سكان الجزيرة العربية قائم على صفات ربما لايضعها كثير من علماء الأجناس فى المنزلة الأولى من الأهمية بين أسس التقسيمات الجنسية ، فما ينبغي أن ننسى ماسبقت الاشارة اليه من أن

---

(١) لايزال أمر العناصر العربية التى تظهر فيها بعض المؤثرات الحامية وصلاتها بالعناصر التى تظهر فيها نفس المميزات موضوع مناقشة واختلاف بين علماء الأجناس ، وقد حدد (برترام توماس) الاحتمالات الممكنة فى هذه الناحية عند ماتساءل عن حقيقة الوضع الجنسى لتلك العناصر التى صادفته فى رحلته بجنوب بلاد العرب :

" Who and whence are these tribes? - Indigenous? Of African origin? Or have they a common origin with African tribes? Or are none of these hypotheses tenable?"

Bertram Thomas = Arabia Felix, London 1932, P. 302.

(٢) راجع فى الكتاب السابق الصور رقم ١٠ و ١١ و١٢ و١٣ و ١٤ وقارن بينها وبين صور تمثل العناصر الحامية الافريقية .

الحاميين والساميين مجموعتان فرعيتان من مجموعة جنسية رئيسـية هى مجموعة البحر المتوسط لها صفاتها العامة المشتركة.

ولو صح مثل هذا الوضع للتاريخ الجنسى لبلاد العرب لكان سكان الجنوب من الحاميين أقدم ، ولكانت الصبغة السامية التى تسود شـبه الجزيرة الآن أحدث نسبياً . والغريب أن ما يذهب اليه مؤرخو العرب ونسابتهم يكاد يكون متفقاً مع هـذا لحد كبير ؛ فالعرب العاربة (عرب الجنوب) هم فى نظرهم العرب الحقيقيون الأصليون ، أما العرب المستعربة (عرب الشمال) فأقل تأصلا فى العروبة من الجنوبيين .

٢ - وهنالك المجموعة الأرمنية ، إحدى فروع المجموعة القوقازية أيضاً ،وهذه عناصر تتميز بوجه عام بالرأس العريض الذى يتبطط فيه القزال (مؤخرة الرأس) ، كما تتميز بالأنف المرتفع البارز الذى يتحدب فى شكله فيأخـذ مظهراً خاصاً صبغ العناصر الأرمنية بميزة أنفية معروفة . ولـكنها ميزة يشترك مع الأرمن فيها عناصر أخرى من الجماعات التى تتكلم اللغات السامية . والواقع أنه ليس هنالك أساس يمكن أن نعتمد عليه فى التفريق بين الأنف الأرمنى وأنوف تلك الجماعات الأخرى ، إذ أن بروز الأنف وتحدبه صـفتان شائعتان بين العرب لا يربطهما بعض الـكتاب - كما يربطون ظاهرة استدارة الرأس - بمؤثرات أرمنية ، وانمـا ينظرون اليهما كأنهما صفتان أصليتان ، ظهرتا مستقلتين فى العرب كما ظهرتا فى غيرهم من السلالات الجنسية التى تسكن الجنوب الغربى من قارة آسيا .

هذه المجموعة الأرمنية، توزع غالباً فى الاقليم الجبلى الذى يطوق الأقطار العربية الأسيوية من الشمال ، لـكن لم تسلم تلك الأقطار نفسها من الأثر الأرمنى الذى يبدو بارزاً فى كثير من الجماجم القديمة التى عثر عليها الأركيولوجيون فى أرض الجزيرة وبلاد الشام . وهذا أمر طبيعى جداً إذا أخذنا فى الحسبان العوامل الجغرافية الملابسـة ، وتذكرنا التباين فى الثروة بين أراضى الهلال الخصيب فى غناها ووفرة إنتاجها ،وبين النطاق الجبلى الذى يطوقها من الشمال فى جدبه وفقره . مثل هـذا التباين كان من شأنه أن يغرى العناصر الأرمنية الجبلية بالهبوط الى تلك الاقاليم السهلة الغنية ، كما كان يغرى سكان الصـحراء فى فترات الجدب والجفاف ، حتى كاد التاريخ القديم لأراضى الهلال الخصيب يكون صراعاً مستمراً على السيادة بين سكان البلاد وغيرهم وكان لابد من أن تترك هذه الظاهرة أثراً واضحاً للمميزات الأرمنية فى سكان أراضى هـذا

الهلال ، ولما كانت امبراطورية كامبراطورية الحيثيين مثلا قد قامت على أكتاف العناصر الأرمنية ونشأت أصلا فى أراضيهم الجبلية ، ثم بسطت نفوذها ونشرت سلطانها جنوبا ، فإن أثر العناصر الأرمنية انما كان بارزاً فى الجهات الشمالية من الأقطار العربيــة الأسيوية ، يأخذ فى الضعف كلما تحركنا ناحية الجنوب .

ولا شك فى أن مرجع هذا انما كان الى حكم الجوار أولا ، لملاصقة شمال الأقطار العربية الأسيوية لموطن العناصر الأرمنية وما يؤدى اليه هذا التلاصق من تسرب هذه العناصر الأرمنية بين سكان أراضى الهلال الخصيب ، تسربا يضعف أثره كلما بعــدنا عن موطن هذه العناصر بطبيعة الحال . هــذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأن المنطقة الصحراوية المجدبة الى الجنوب لم تكن لتغرى سكان الجبال بالانتقال اليها ، بل إنهــا أكثر من ذلك كانت تنبض فى فترات الجفاف فتبعث هى بموجات متعددة الى الشمال ، كانت تضطر العناصر الأرمنية الى الانزواء فى مناطق العزلة والتطرف ، فى جبال الأقطار العربية أو فى أركانها ، وهى بهذا تضيق الدائرة التى وصل اليها الأثر الأرمنى ، وتوسع دائرة الأراضى التى تأثرت بالموجات السامية ، التى بدأت من مكان ما بالجزيرة العربية ، وأخذت طرقا مختلفة إلى أراضى دجلة والفرات وبلاد الشام .

على أننا وإن ضيقنا الدائرة التى وصل اليها الأثر الأرمنى ، فما ينفى هذا أن توزيع الرءوس العريضة قد تجاوز مناطق الشمال ووصل الى الأطراف الجنوبية للجزيرة العربية ، سواء فى عمان وما يجاورها غربا ، أو اليمن وما يتصل بها من أراضى حضرموت . . . وإذا كان من الصعب أن نقطع باستحالة إمكان حدوث ظاهرة استدارة الرءوس متطورة تطورا محليا مستقلا ، فالراجح أن هــذه الظاهرة قد حدثت نتيجة حركة لأصحاب الرءوس العريضة ، خرجت من منطقة توزيعهم فى الشمال ، واتجهت الى الجنوب . . ولقد أثبتت دراسة المقاييس التي أخذت على الرءوس العريضة فى المناطق المختلفة فى جنوب بلاد العرب أن هنالك أثرا أرمنيا ، مؤكدا فى اقليم عمان ، لــكن صلة الرءوس العريضــة فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة بالمؤثرات الأرمنية أمر لا يمكن القطع به تماما الآن .(١)

(١) راجع هذه المقاسات مفصلة فى دراسة الأستاذ (كيث) وزميله « للمميزات الجنسية للعرب الجنوبيين » فى الجزء الملحق بكتاب (برترام ثوماس) الذى سبقت الاشارة اليه من صفحة (٣٠١ إلى صفحة ٣٣٣).

والظاهر أن هذه العناصر الأرمنية قد أخذت طريقها الى الأطراف الجنوبية عبر سهول دجلة والفرات ، ثم بحذاء الخليج الفارسي الى اقليم عمان ، باعتبار أن هذا الطريق أسهل بكثير من أن تأخذ تلك العناصر طريقها قاطعة الجزيرة العربية فى وسطها من الشمال الى الجنوب ، سيما وأنها لم تترك آثارا جنسية على طول هذا الطريق يمكن أن يعتمد عليها فى ترجيح هذا الرأى على الرأى الاول[١] . . . والكتاب يربطون اندفاع هذه الموجات الأرمنية الى الجنوب بفترات كانت الجزيرة العربية فيها أكثر مطرا وأغنى نباتا ، وإذاً فقد كان فيها ما يغرى سكان الجبال فى الشمال بأن يتحركوا جنوبا . . . لكن فترات الجفاف التى تبعت هذا أوقفت استمرار هذه الموجات الأرمنية الى الأطراف الجنوبية لشبه الجزيرة ، من جهة لأنه لم يعد هنالك ما يغرى هذه العناصر الأرمنية بالهجرة ، ومن جهة أخرى لأن الاضطراب الاقتصادى الذى تبع حالة الجفاف هذه قد دفع الى الشمال بموجات من قلب الجزيرة العربية ، كانت فى حد ذاتها عاملا لم يمكن الهجرات الأرمنية من أن تستمر فى حركتها الى الجنوب .

ويهمنا – قبل الكلام على باقى العناصر التى تدخل فى تكوين شعوب الأقطار العربية الأسيوية – أن نشير الى أن عنصر البحر المتوسط والعنصر الأرمنى هما فى الواقع العنصران الأساسيان فى الكيان الجنسي لهذه الشعوب ، وإن اختلفت الأهمية النسبية لكل منهما من منطقة الى أخرى . . وهذان العنصران إن وجدا فى حالة نقية أحيانا فكثيرا ما يبدو الاختلاط بينهما قويا ، مع التفاوت فى درجة الاختلاط بحسب مايوحي به الموقع الجغرافى من جهة والعوامل التاريخية من جهة أخرى . . . ويرجع علماء الأجناس ما يعثر عليه الأركيولوجيون فى غرب آسيا من جماجم قديمة الى أحد هذين العنصرين ، ولو أن الخلاف لايزال قائما بين هؤلاء العلماء على ترجيح أسبقية عنصر منهما فى سكنى هـذه الأقاليم على العنصر الآخر : فمنهم من

(١) لاينفى الأستاذ (بكستون) أن فى الامكان أن يكون طريق العناصر عريضة الرءوس إلى جنوب بلاد العرب قد سار قاطعاً أراضى الجزيرة ومتتبعاً ساحل الخليج الفارسى ، لكنه مع ذلك يذهب إلى أننا ما دمنا قد رأينا هـذه العناصر فى الأزمنة القديمة تضغط على مصر وشمال إفريقية فليس هنالك ما يمنع من أن تكون قد ضغطت كذلك على شمال بلاد العرب ، وقطعت الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب ، حتى ولو لم نلمس فى عرب كالشماليين أثرا لصفات هـذه العناصر . راجع L. H. Dudley Buxton = The Peoples of Asia, London 1935. p. 106.

يذهب الى أن العناصر الأرمنية هي العناصر القديمة ، أما عناصر البحر المتوسط فقد وصلت متأخرة نسبيا واختلطت بمرور الزمن بالأرمنيين وعدلت فى بعض صفاتهم .. فاذا صحت هذه النظرية ، فلا شك فى أن هذه العملية قد تمت فى أزمان بعيدة جدا ، إذ أن العنصرين — فيما يظهر - كانا ممثلين بوضوح فى كثير من أجزاء الأناضول فى العصر البرونزى ، كما أن أقدم الجماجم التى اكتشفت فى قبرص كانت لأناس يرجحون بالتأكيد الى هذه السلالات الخليطة المكونة من عناصر البحر المتوسط ومن العناصر الأرمنية ، وكذلك يمثل العنصران فى منطقة (كش) بالعراق منذ أقدم العصور .. على أنه اذا كان لمثل هـذا الجدل أساس فيما يختص بدراسة التاريخ الجنسى لبلاد الأناضول ، فالأدلة التى بين أيدينا تجعلنا نميل الى ترجيح أقدمية عناصر البحر المتوسط فى سكنى معظم الجهات الأخرى فى غرب آسـيا .. وأيا كانت أهمية الموجات التى وصلت الى هذه الأقطار فى الفترات التى تلت فجر تاريخ كيانها الجنسى ، فالظاهر أن السكان القـدماء فى أساسهم لم يكونوا مختلفين اختلافا جوهريا فى مميزاتهم الجنسـية عن السكان الحاليين لهذه الأقطار .

٣ — ثم يبقى أن نشـير الى منطقة العناصر الزنجية فى الجنوب ، لنبين مدى تأثيرها من الناحية الجنسية فى شـعوب الأقطار العربية الأسيوية المجاورة لها .. إن الزنوج موزعون الآن توزيعا عاما فى النصف الجنوبي لافريقيـة وفى الاطراف الجنوبية الشرقية لآسيا ، لكن يظهر أن هاتين المنطقتين كانتا متصلتين فى العصور القديمة ، إذ كان إقليم الزنوج يكون شـبه نطاق يطوق المحيط الهندى من الشمال ، وكانت سواحل بلاد العرب الجنوبية والجنوبية الشرقية تدخل قديما ضمن هذه المنطقة .. ثم كان أن امتدت أذرع جنسية مختلفة من الشمال ، فقطعت استمرار اتصال الاقليم الزنجي وأحلت محل العناصر الزنجية القديمة عناصر أخرى ، ففى الشرق مثلا انتشرت السلالات المغولية ، وأجلت الزنوج عن بعض مناطق سكناهم ، واختلطوا بهم فى بعض الجهات ، وفى الغرب امتدت أذرع من السـلالات القوقازية ، فانتشرت عناصر البحر المتوسط جنوبا ، ووصلت المؤثرات الأرمنية الى ساحل الخليج الفارسى ، كما سبقت الاشارة .

لكن لاينبغي أن يفهم من هـذا أن الانتشار الزنجي القديم لم يترك له أثرا فى الأطراف الجنوبية للجزيرة العربية ، إذ أن الدراسة الجنسية العميقة للسكان الحاليين فى تلك المناطق قد أثبتت وجود مؤثرات لهذا الانتشار القديم ، لا تزال واضحة وضوحا يمكن أن يربطها

بالجماعات المتأثرة بالزنوج خارج البلاد العربية . وما يقف وصول المؤثرات الزنجية عند حد الأقاليم الجنوبية باعتبارها أقرب أجزاء شبه الجزيرة الى مواطن تلك المؤثرات ، بل يتعداها الى الشمال تاركا أثرا لايمكن إغفاله في الجماعات العربية الشمالية ، حتى لنجد في أشد تلك المجموعات نقاوة بعض تلك المميزات الزنجية ، وان كانت بالطبع مخففة الى حد كبير . (١)

على أن الأثر الزنجي في جنوب الجزيرة العربيـة (وفي بعض جهاتها الوسطى والشمالية) لا يقتصر على ماتركته تلك البقايا للانتشار الزنجي القديم ، بل ان صلات هذا الجزء من البلاد العربية بافريقية الزنجية كان اتصالا وثيقا في العصور التاريخية المتأخرة ، سواء عن طريق تجارة الرقيق التي كانت تلقي سوقا رائجة في البلاد العربية ، أو عن طريق الاتصال المستمر بين تجار العرب وسكان شرقي افريقية بوجه خاص .

هذه هي أهم المؤثرات الجنسية التي يمكن أن يفهم على ضوئها التكوين الجنسي للشـعوب العربية الأسيوية ، لكن لامناص من أن نشير الى مؤثرات أخرى تأتي في الدرجـة الثانية من الأهمية ، كي نستكمل بهذا الحقائق المتصلة بدراسة الكيان الجنسي لتلك الشعوب .

ا — أما في الشمال فتوجد جيوب جنسية تشذ عن العناصر الأرمنية التي تجاورها شذوذاً واضحا، من حيث شكل الرأس ، ومن حيث وضوح الشقرة في لون البشرة ، والاصفرار في لون الشعر ، والزرقة في لون العين . هذه هي جماعات الأكراد ، وهي فيما يظهر أثر لموجة ترتبط بالأصول التي يرجع اليها السلالات الشمالية (النوردية) ، تلك الأصول التي لايبعد أنها خرجت من منطقة ليست بعيـدة عن الأقطار التي ندرسها ، والتي يغلب أن تكون إحدى موجاتها قد

(١) يشير الأستاذ (كيث) في دراسته لمجموعة الصور الملحقة بكتاب (هنري فيلد) عن سكان العراق الأوسط الى ان بعض هذه الصور يبدي ملامح زنجية واضحة ثم يعلق على هذا بما يأتي :

"Among these Negroid features which may be counted normal in Arabs are the full, rather verted lips, shortness and width of nose, certain blanks in the bearded areas of the face . . . , large, luscious, gazelle-like eyes, a dark brown complexion and a tendency for the hair to grow in ringlets. Often the features of the more Negroid Arabs are derivatives of Dravidian India rather than inheritances of Hamitic Africa. Although the Arab of today is sharply differentiated from the Negro of Africa, yet there must have been a time when both were represented by a single ancestral stock; in no other way can the prevalence of certain Negroid features be accounted for in the natives of Arabia.

راجع مقدمة كتاب : Henry Field = Arabs of Central Iraq, Chicago 1935, P. 14.

اتجهت الى الجنوب والغرب ، على حين أن غالبية موجاتها الأخرى كان اتجاهها الى الشمال ، ومن المحتمل أن يكون الـ (Kardouchoi) والـ (Gordyaens) الذين وردت الاشارة اليهم فى كتابة المؤرخين القدماء ، هم الأجداد المباشرون للأكراد الحاليين ، وإن كنا لا نعرف على وجه التحقيق متى وصلت القبائل الكردية الى مواطنها التى تسكنها الآن . . ومهما يكن من أمر تاريخ الأكراد القديم وهجراتهم الأولى ، فهم يتركزون حاليا فى إقليم كردستان الذى يقع جزء منه فى دائرة الأقطار العربية الأسيوية .

على أن وجود هذه المجموعة الجنسية الشاذة وسط غالبية من العناصر الجنسية التى تختلف عنها تماما فى مميزاتها الجثمانية ، كان من شأنه أن يجعلها تتأثر بتلك العناصر الغالبة ، وكان لابد من أن يؤدى هذا الى تعديل فى صفاتها ، ومن هنا تميز سكان كردستان بالاختلافات الجثمانية المحلية نتيجة لاختلاف العناصر التى تحتك بهم ، مع التسليم بوجود شىء من التجانس يربط بين سكان كردستان جميعا : فقد احتفظ الأكراد فى مجموعهم بالقامة الطويلة والرءوس الطويلة ، مع ميل الى الاستدارة حيث يوجد اختلاط بالأرمن والأتراك ، وحيث استقروا فى شمال أرض الجزيرة فتأثروا بالعناصر العريضة الرءوس التى تسكن الجزء الشمالى من العراق . . لكن الغريب أن صفات الوجه عند الأكراد – من حيث وضوح الارتفاع والضيق فيه – لم تتعدل تعدلا يذكر ، رغم الاختلاط بعناصر تتميز باتساع الوجه وقصره ، أى أن صفات الوجه أكثر ثباتا من مميزات الرأس فى هذه المجموعة بالذات .

ب – هذا فى الشمال ، أما فى الجنوب فلا بدَّ لنا من أن نتذكر أن الشعوب العربية التى تسكن الجهات الساحلية كانت دائما شعوبا بحرية ، تجاوزت فى علاقاتها التجارية سواحل افريقية ، ووصلت الى اقليم الملايو وجزائر الهند الشرقية ، حيث كان للعرب جاليات ليست صغيرة فى كثير من المدن ، انتشرت عن طريقها الثقافة الاسلامية بين سكان هذه الجهات ؛ لكن أثر هذه الجاليات العربية فى سكان الملايو كان أثرا معدوما تقريبا من الناحية الجنسية ، نظرا لصغر هذه الجاليات وقلة عددها بالقياس الى المجموعة الجنسية الغالبة فى تلك الأقاليم . . وعلى خلاف هذا كان أثر سكان الملايو فى تلك الجاليات العربية ضئيلا فى الناحية الثقافية ، قويا فى الصفات الجثمانية ، فقد تزوج كثير من العرب بنساء من أهل الملايو اصطحبوهن وأولادهن الى بلاد العرب عند عودتهم اليها ، فتكون عن هذا الطريق لون من التهجين ، أظهر بعض الصفات

المغولية معدلة فى سكان بعض الجهات الساحلية الجنوبية للبلاد العربية .. وعلى حين أنه قد ظلت العناصر الافريقية فى جنوب بلاد العرب متميزة،لا تتسرب دماؤها الى العرب تسربا يقبله المجتمع بسهولة ويقره ، تسربت دماء عناصر الملايو ووضح أثرها فى جهات كثيرة فى إقليم الساحل الجنوبى ، سيما فى الطبقات الأرستقراطيةوفى سكان وادى حضرموت بوجه خاص .

هذه صورة سريعة لأهم العناصر التى تدخل فى التكوين الجنسى للشعوب العربية الأسيوية ، يتضح منها امتداد أثر عناصر البحر المتوسط امتداداً لايصل اليه أثر العناصر الباقية ، وإن استحال علينا أن ننفى أهمية المؤثرات الجنسية الأخرى ، سيما المؤثرات الأرمنية التى صمدت أمام الموجات المختلفة ، وظلت محتفظة بشخصيتها الجنسية و ببعض مميزاتها الثقافية ، وبذلك طبعت بطابع تتميز به فى المحيط الجنسى الذى تقع فيه الآن . وعلى ضوء هذه الصورة السريعة يمكننا أن نقسم شعوب البلاد العربية الأسيوية تقسيما عاماً إلى ثلاث مجموعات :

الأولى . تمتاز بالبساطة فى تكوينها الجنسى، تسكن أراضى نجد ، ومناطق الصحارى فى بلاد العرب ، وامتداد هذا الاقليم الصحراوى شمالا بين أرض الجزيرة و بلاد الشام . هذه المجموعة احتفظت بحكم الظروف الجغرافية المحيطة بها بكثير من صفات سلالات البحر المتوسط التى أشرنا اليها ، دون أن يصل اليها تأثير قوى ، لامن العناصر الأرمنية وغيرها من الشمال ، ولا من المؤثرات الجنوبية ، اللهم إلا بعض مؤثرات زنجية مخففة وصلتها عن طريق الرقيق الذين يملكهم الأثرياء من العرب ، وهى مؤثرات بسيطة محدودة يمكن ألا يهتم بها كثيراً .

الثانية . مجموعة يشتد تعقدها الجنسى ، إذ يتداخل فى تكوينها عناصر جنسية متعددة ، نتيجة لموقعها بالنسبة للمجموعات الجنسية المحيطة بها . وهذه المجموعة ، أو المجموعات،توزع على هوامش الأقطار العربية الأسيوية ، يدخل فيها كثير من سكان لبنان وشمال العراق من ناحية ، كما يدخل فيها كثير من سكان اليمن والامارات التى تقع فى الجنوب والجنوب الشرقى من ناحية أخرى . لكن طبيعة التعقد تختلف بعض الاختلاف فى الشمال عنها فى الجنوب ؛ ذلك لأن الصراع الجنسى فى الشمال كان بين عناصر تكاد تكون متكافئة ، ومن هنا لم تستطع عناصر البحر المتوسط مثلا (وقد رأيناها غالبة فى المناطق الشمالية) أن تقضى على شخصية عناصر كالعناصر الأرمنية ؛ بل كل ما استطاعت أن تفعله هو أن تدفعها دفعاً يضيق مناطق انتشارها ، لكنها مع ذلك حافظت على طابعها الجنسى فى تلك الأقاليم التى ظلت تسكنها إلى

الآن ، بل إن أمر محافظتها على طابعها الخاص قد تجاوز المميزات الجثمانية إلى بعض خصائص الثقافة ، فعلى الرغم من أن اللغة العربية (كفرع من فروع اللغات السامية) قد فرضت على كل سكان تلك الأقطار تقريباً بغض النظر عن اختلافاتهم الجثمانية ، فإن الدين الاسلامى لم ينجح هـذا النجاح الذى نجحته اللغة العربية فى انتشارها ، إذ استطاعت طوائف كثيرة أن تحتفظ بعقائدها الدينية كاملة أو معدلة بعض التعديل ، وأصبح من الظواهر البارزة وجود شبه ارتباط بين أصحاب الرءوس العريضة (المنتمين الى الجماعات الأرمنية) وبين الطوائف غير الاسلامية سواء فى العراق أو فى لبنان .

هذا فى الشمال ، أما فى الجنوب فالحال يختلف عن هذا اختلافاً واضحاً ، إذ أننا هنا أمام عناصر كثيرة مختلطة ، لكن ليس فيها مايمثل قوة العناصر الأرمنية فى الشمال ، ولهذا نجد أثر البحر المتوسط بارزاً لا يضعف إلا حيث تفضل سلالات هذا الجنس أن تترك المجال للعناصر الأخرى، عند ما تقل صلاحية المنطقة للسكنى ، كما هو الحال في استئثار عناصر البحر المتوسط بسكنى إقليم المضبة فى اليمن ، تاركة إقليم السهل الساحلى بحرارته ورطوبته لسكنى الجماعات الأخرى .

الثالثة : مجموعة تسكن مناطق الانتقال بين المجموعتين ، الأولى والثانيـة ، واضحة تمام الوضوح عند ما ننتقل من إقليم الصحارى متحركين شمالا ناحية سهول أراضى الهلال الخصيب ، فالجماعات التى تسكن على حافة الصحراء - سواء فى العراق أو فى سوريا - تتعدل فيها المميزات الأرمنية وصفات عناصر البحر المتوسط لحد كبير ، فالرءوس متوسطة تقل فيها الرءوس الشديدة الاستدارة ، والأنوف تتعدل بعض التعديل ، وكذلك الحال فى بعض المميزات الأخرى لكن هذا لاينفى وجود بعض عناصر من سكان هذه المنطقة الانتقالية يمكن أن نربطها بسهولة بمجموعة البحر المتوسط أو المجموعة الأرمنية ، لأن الاختلاط بين الجماعات الجنسية المختلفة لا يؤدى حتما إلى وجود عناصر تتوسط فى تكوينها الجنسى بين تلك الجماعات .

الوضع الجنسى لشعوب الأقطار العربية المختلفة

والآن وقد مهدنا الأذهان بمـا فيه الكفاية لفهم التكوين الجنسى لكل وحدة من وحدات الشعوب العربية الأسـيوية ، يمكن أن ندخل فى تفاصيل الدراسة الجنسية لمختلف هذه الأقطار .

أولا — العراق :

إن سكان العراق الأصليين يمكن أن نربطهم – من حيث صفاتهم الجثمانية – بالعناصر الطويلة الرءوس التي كانت تسكن مصر فيما قبل الأسرات ، أي أن العنصر الذي كان سائداً في الزمن القديم هو من سلالات البحر المتوسط ، تسربت اليه – في المناطق الشمالية خاصة – مؤثرات أرمنية ، وكانت تغذيه دائماً هجرات من الصحراء العربية لا تختلف في صفاتها الجنسية الأساسية عن سكان أرض الجزيرة الأصليين.[1] لهذا يمكن أن نقرر إجمالا أن سكان العراق الحاليين في جملتهم لا يختلفون اختلافاً جوهرياً عن سكانه القدماء ، إذ أنه بعد أن أخذ الاقليم طابعه الجنسي ، لم تغير الموجات الحديثة التي وصلت إلى أجزائه المختلفة المميزات الجثمانية للسكان تغييراً يذكر ، من جهة لأن العناصر التي أتت بها هذه الموجات لم يكن معظمها ليختلف في كيانه الجنسي عن العناصر القديمة التي اختلطت بها ، ومن جهة أخرى لأنها بعد الاستقرار الجنسي للعراق لم تكن من الكثرة العددية بحيث تستطيع أن تفرض مميزاتها الجثمانية على السكان الأصليين ، بل على العكس من ذلك استطاعت العناصر الأصلية أن تمثلها وتهضمها ، وإن كان هذا لم يمنع من أن تظل بعض تلك الجماعات محتفظة بشخصيتها الجنسية كما أثبت هذا الأستاذ

(١) ان البقايا البشرية التي وجدتها بعثة جامعة اكسفورد بالاشتراك مع Field Museum بشيكاغو ترجع غالبية الجماجم فيها الى سلالة البحر المتوسط ، وهي جماجم تنخفض النسبة الرأسية فيها إلى أقل من ٧٠ في معظم الاحيان ، على أن هذا لم يمنع من وجود عنصر ثان يرتبط بالعناصر الأرمنية في المقابر التي اكتشفت حول (كش) في العراق الأوسط . هذان العنصران فيما يظهر كانا يعيشان جنباً الى جنب في العهد الذي ترجع اليه هذه الجماجم ، والذي يحتمل أن يكون معاصرا لأوائل عهد الأسرات في مصر فيما يرى (لانجدن) . والخلاف كبير بين العلماء على أصل السومريين ، منهم من يربطهم بعناصر البحر المتوسط ، ومنهم من يربطهم بعناصر أرمنية ، وفريق ثالث يذهب الى أن السومريين اسم لوحدة حضارية أكثر مما هو اسم لوحدة جنسية . راجع كتاب الأستاذ (بكستون) عن شعوب آسيا الذي سبقت الاشارة اليه من صفحة ١٠١ الى صفحة ١٠٤ .

(هنرى فيلد) فى دراسته لبعض القبائل العربية التى تنزل الآن فى أرض الجزيرة بين دجلة والفرات .

على أن ذلك لاينفى بالطبع وجود فوارق إقليمية بين سكان العراق يمكن أن تفهم على ضوء موقع أجزاء العراق المختلفة بالنسبة لمواطن العناصر الأرمنية ، ومدى ما وصل إليه أثر هذه العناصر فى انتشارها ناحية الجنوب ، وفى الامكان أن تقسم العراق على هذا الأساس إلى إقليمين جنسيين متميزين :

١ – الاقليم الشمالى : الذى تأثر بالعناصر الأرمنية تأثراً واضحاً ، تلك العناصر التى تبرز صفاتها بشكل ملموس بين الأثوريين (الأشوريين) الذين يسكنون فى شمال العراق ، والذين يقربون من الأرمن فى شكل الرأس وفى كثير من الصفات الجثمانية الأخرى . هذا من الناحية الجنسية ، أما من الناحية اللغوية فالأشوريون شعب سامى ، وإن كان الأشوريون القدماء أبعد ما يكونون عن الشكل المثالى للساميين كما نعرفه فى بدو الصحراء مثلا ، إذ هم يقربون من صفات الأرمن لحد كبير ، لكن على حين أن الأرمن قد ظلوا يتكلمون لغة غير سامية ، فرضت اللغة السامية على الأثوريين (الأشوريين) فرضاً ، بغض النظر عن الصفات الجنسية لهذه الجماعات .

ولقد أثبتت دراسة الأستاذ (كابرز) وجود شبه فى الصفات الجثمانية بين عرب الموصل المسيحيين وبين الأرمن ، يشبه الصلات التى تربط بين الأرمن والأشوريين ، يبدو واضحا جداً فى مقارنة مميزات الرأس والنسبة الرأسية بين الأرمن وهؤلاء العرب المسيحيين . وإذاً فتسمية هذه العناصر عربا ، انما هى تسمية تقوم على أساس من اللغة التى يمكن أن تكون قد فرضت على هذه العناصر كما فرضت على غيرها دون اتفاق فى المميزات الجنسية . . . وربما كان مرجع هذا الارتباط فى الصفات الجثمانية بين عرب الموصل المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وبين العناصر الأشورية الكلدانية ، إنما هو الى العامل الدينى الذى يلعب دورا كبيرا فى اختيار الأزواج بين الشعوب الاسلامية ، إذ أن التزاوج بين هؤلاء المسيحيين فى الموصل وبين المسلمين متعذر ، على حين أنه لاتقوم هنالك صعوبة فى زواج هؤلاء المسيحيين بغيرهم من أهل الطوائف الدينية الأخري .

٢ – الاقليم الأوسط والجنوبي [1] الذي يسوده شيء كثير من الانسجام الجنسي ، والذي يقل الأثر الأرمني فيه قلة واضحة ، وإذاً فهذا الاقليم الثاني هو الذي يقرب سكانه من سكان الاقليم الصحراوي المجاور له ، وان لم يصل في النقاوة الى مايصل اليه هذا الاقليم الأخير، لأن هذه الأراضي السهلة من أراضي الجزيرة كانت باستمرار مناطق يطمع فيها سكان المناطق الجبلية التي تقع في الشمال ، ولذلك لانعدم في الوسط والجنوب وجود مجموعة قليلة من أصحاب الرءوس العريضة ، كما نلاحظ أن القامة في جملتها أطول بين سكان العراق منها بين البدو من سكان الصحراء ، وهي بين سكان وسط العراق أقصر نسبيا منها بين سكان الجبال في الشمال . [2]

ولابد لنا ونحن بصدد الكلام على العناصر الجنسية لشعب العراق من أن نشير الى جماعات الأكراد ، الذين لايقتصر توزيعهم على العراق وانما يتجاوزه الى تركيا وسوريا وإيران . . ولقد سبقت الاشارة الى أن هؤلاء الأكراد يختلفون في شكل الرأس وفي كثير من المميزات الجنسية الأخرى عن الجماعات التي تحيط بهم ، وإن لم يسلموا بالطبع من أن يتأثروا بها لحد محدود ، مع ملاحظة أن تأثر الاكراد في العراق بالعناصر التي يعيشون بينها هو من الضآلة بحيث يمكن اغفاله إغفالا تاما ، والمرجح ان عناصر الاكراد الفاتحة البشرة قد أتت من الشمال ، في موجات كان لها تأثيرها في الجنوب الغربي من قارة آسيا ، وقد استطاعت أن تحتفظ – الى جانب احتفاظها بمميزاتها الجثمانية – بطابعها الثقافي ، إذ أن الأكراد لايتكلمون لغة سامية بل إن لغتهم لغة آرية تنقسم الى عدة لهجات .

---

(١) يدرس أهل الكويت من الناحية الجنسية مرتبطين بسكان جنوب العراق أكثر من ارتباطهم بجيرانهم من سكان الاقطار العربية الأخرى ،و يلخص الأستاذ (كون) الفروق بين الكويتيين وبين سكان هضبة اليمن ـــ الذين سنراهم يمثلون سلالات نقية لحد ما من سلالات البحر المتوسط ـــ تلخيصاً نكتفي منه بالنقطتين الآتيتين : الأولى أن الرءوس وان اتفقت في صغر الحجم فانها بين الكويتيين أقصر وأعرض منها بين اليمنيين ، ولهذا ترتفع النسبة الرأسية بينهم . والثانية أن الشعر فيهم أكثر استقامة والبشرة أغمق والأنف أضخم . راجع كتاب :

Carleton Stevens Coon = The Races of Europe, NewYork 1939, P. 413.

(٢) راجع المقارنات في مقدمة كتاب الأستاذ (هنري فيلد) عن عرب العراق الأوسط من ص ٢٥ إلى ص٣٧ .

ثانيا — سوريا ولبنان :

إن الدراسة التفصيلية لسكان هذه المنطقة تؤيد تماما ما أشرنا اليه من مقدمات ، فنحن أمام فوارق أساسية بين الجماعات التى تسكن جهات سوريا العظمى المختلفة ، بحيث يمكن أن نميز فيها ثلاثة أقسام جنسية فرعية :

١ - سكان الجبال ، ويدخل فيهم (العلويون) و (المتاولة) و (سكان البقاع) ، وهؤلاء جميعا يرتبطون ارتباطا واضحا بالجماعات العريضة الرؤوس . والملاحظ فى الجماعات التى تسكن الجبال أن أكثرها تطرفا فى استعراض الرأس هى جماعات المتاولة ، وأن سكان البقاع وسط من الناحية الجنسية - كما هم وسط من ناحية الموقع الجغرافى - بين المتاولة فى الجنوب والعلويين فى الشمال .(١)

٢ — بدو الصحراء السورية من الموالى و (العقيدات) و (الرُّوَلَه) ، وهؤلاء جميعا يمكن ربطهم بسلالات البحر المتوسط بصفاتها المعروفة . . . وإذا كنا قد وضعنا كل الجماعات التى تسكن الصحراء فى مجموعة جنسية واحدة ، فما ينفى هذا وجود بعض الفوارق فى المميزات الجسمانية التى تتصف بها ، فالدراسة الأنثروبولوجية المفصلة لهذه الجماعات الصحراوية تبرز اختلافات بين الموالى والعقيدات من جهة ، وبين الرولة من جهة أخرى ، إذ أن الرولة أكثر استطالة فى الرأس ، وأشد ضيقا فى الوجه ، كما تقصر القامة بينهم عن قامة الموالى والعقيدات . ، لكن الفوارق الجنسية بين هذه الجماعات أقل بكثير من الفوارق التى بينها كمجموعة وبين الجماعات الأخرى التى تسكن الجبال وحافة الصحراء .

---

(١) يشير الدكتور (شانكلن) — الذى قام بأبحاث انثروبولوجية كثيرة على الجماعات المختلفة التى تسكن الشام — الى أن الجماعات عريضة الرءوس لا يمكن إرجاعها الى العناصر الأرمنية بالوصف التقليدى المعروف ، وينصح بضرورة التريث الى أن تتم الدراسة التفصيلية ، ليمكن على أساسها تحديد الوضع الصحيح لهذه الجماعات بين الجماعات الأخرى عريضة الرءوس :

These brachycephals cannot be considered Armenoid with reference to the usual definition of that type; their relationship is obviously with other brachycephals of Europe Affiliation.

راجع : William M. Shanklin = Anthropology of Syrian Males (Jour. Roy. Anth. Inst., Vol. L XVIII), 1938.

٣ – السكان الذين ينزلون على حافة الصحراء ، فى حماه وماردين وحفر وحجانه ، وهؤلاء يمكن اعتبارهم جماعات تمثل حالة الانتقال بين عناصر البحر المتوسط فى الجنوب والجماعات العريضة الرءوس فى الشمال .

ويمكن تلخيص الفروق الأساسية بين هذه المجموعات الثلاثة فى النقط الآتية :

ا – استطالة مطردة للرأس ، وانخفاض فى النسبة الرأسية كلما تحركنا من الاقليم الجبلى الى حافة الصحراء ، لكن ليست هنالك قاعدة مطردة يمكن الأخذ بها فيما يختص بعرض الرأس على غرار مالوحظ فى حالة طول الرأس ، وإن كان يمكن أن نقول إجمالا إن الرءوس أكثر اتساعا بين سكان الجبال وأشد ضيقا بين أهالى الصحراء .

ب – ضيق مطرد واستطالة فى الانف والوجه كلما تحركنا من الشمال الى الجنوب .

حـ – أنوف محدبة تغلب بين سكان المناطق الجبلية ، وتظهر بصورة أقل وضوحا بين البدو سكان الصحراء .

ء – بشرة تأخذ فى الاسمرار أكثر فأكثر كلما قربنا من الصحراء . أما لون العين فلم تبرز فيه اختلافات واضحة ، ولو أن العيون الزرقاء لاتظهر بين سكان الاقليم الصحراوى إلا نادرا ، وكذلك الحال فى لون الشعر وشكله فما يظهر أن هنالك فروقا تذكر بين الجماعات المختلفة فى هذه الصفات .

هـ – إن نسبة المجموعة الدموية (صفر) تزداد كلما اتجهنا ناحية الصحراء ، حتى لتصل الى أكثر من ٨٩ فى المائة بين قبائل الموالى مثلا .[1]

(١) تتفق كل هذه النتائج مع ما وصل اليه الأستاذ (فون لوشان) على أساس مقاساته التى أخذها عام ١٨٨٣ على عدد من بدو العنازة ومن قبائل شمر ، ثم قارنها بمقاساته لعدد من العرب المسلمين الذين كانوا يقيمون فى بعض مدن سوريا ، إذ كان توزيع النسبة الرأسية مثلا . أولا : بين البدو (٣٨ عنازه) النسبة الرأسية بين ٦٨ و ٧٨ و (١٨من بدو آخرين) النسبة الرأسية بين ٧١ و ٨١ و (٥٠ من بدو الحائل) النسبة الرأسية بين ٧٠و٧٤ .ثانياً : بين سكان المدن (٢٠ عربياً من حماه) النسبة الرأسية بين ٨٥و٨٩ ، (١٥ مسلماً من المدن السورية)النسبة الراسيةبين٧٦و٨٩ كما كان يتمشى هذا مع شكل الانف ، فالبدو بشكل عام أنوفهم قصيرة تتسع نوعاً ما ، أما العرب الآخرون فالأنف فيهم إجمالا ضيق أشم يميل فى الغالب الى التحدب ، راجع هذا كله فى مقال :

Felix V. Luschan = The Early Inhabitants of Western Asia (Jour. Roy. Anthr. Institute, Vol. XLI, P. 235).

ومن هذا كله يتضح أن الفوارق الجنسية فى سوريا العظمى إنما تتوزع على أسس جغرافية أكثر من ارتباطها بالأسس الدينية ، وإن كان هذا لا ينفى نفياً باتاً وجود شيء من الصحة فيما ذهب اليه (فون لوشان) فى مقاله عن « السكان الأوائل لغربى آسيا » ،من أن معامل الارتباط قوى جداً بين الصفات الجنسية للعنصر الأرمنى و بين الطوائف التى تعتنق المذاهب الدينية غير الاسلامية ، سواء أكان ذلك فى الأناضول أم فى شمال سوريا وأرض الجزيرة ، فكل هذه الجماعات عظيمة التجانس فى تكوينها الجثمانى ، كنتيجة طبيعية لتزاوجها الداخلى الذى حماها من الاختلاط الكبير الذى تأثرت الجماعات الأخرى به ، ولذلك يرى الكاتب فى تلك الجماعات بالذات بقايا السكان الأوائل لهذا الجزء من القارة الأسيوية ، وهو فى هذا منطقى مع نفسه ، لأنه من زعماء المدرسة التى تقول بأسبقية العناصر الأرمنية على عناصر البحر المتوسط فى سكنى هذه الاقاليم .

ويقع الدروز واللبنانيون مرتبطين بالمجموعة الجبلية ،يقربون كثيراً من المتاولة وسكان البقاع، فالدروز مثلا عناصر عريضة الرءوس،تشتد استدارة الرأس فى قسم منهم اشتداداً كبيراً ، ويصح أن نستبعد هنا ما ذهب اليه (فون أوبنهيم) من أن الدروز عرب هاجروا الى مناطقهم الحالية فى بدء القرن التاسع الميلادى ، لأن هذا يناقض ما يجرى به العرف عند العرب ، بل وعند الدروز أنفسهم ، كما يناقض نتائج البحوث الأنثربولوجية التى تؤكد شدة استدارة الرأس عند الدروز ، وهذه صفة لانعرفها شائعة بين سكان الصحراء .

وقد يكون من المفيد أن نشير الى أن دراسة فصائل الدم عند الدروز تبعدهم عن الدائرة التى يقع فيها اللبنانيون على أساس التقسيمات الدموية المعروفة ، فعلى حين أن النسبة الدموية (Biochemical Race Index) للبنانيين هى ٢٫٥٦ (وهى نسبة تقربهم من الأرمن الذين تبلغ تلك النسبة فيهم ٢٫٣١ وتبعدهم عن بدو الصحراء ، ونسبتهم ١٫٥٩)، نراها تهبط بين الدروز الى ١٫٥٩ بحسب دراسة الأستاذ (پار) .ولما كان الفرس يتفقون فى نفس النسبة مع الدروز ، مال (پار) الى الأخذ برأى الأستاذ (حِتّى) ، الذى يذهب الى وجود صلات قوية بين الفرس والدروز . واذا لم تكن مهمتنا الآن دراسة مثل هذا الزعم ، فان علينا أن ننبه إلى ضرورة الحرص فى قبول مثل هذه الآراء ، من جهة لأن عامل التزاوج الداخلى قد يكون له أثر فى هذا الاختلاف الذى نلاحظه فى التركيب الدموى بين الدروز وجيرانهم من اللبنانيين ،

ومن جهة أخرى لأن الدراسة الأنثروبولوجية لهذه المنطقة لم تستوف حقها من البحث حتى الآن ، يضاف إلى هذا أنه اذا كان هنالك ما يبرر إيجاد صلة بين الدروز و بين الفرس - على أساس التشابه بينهم فى النسبة الدموية فما موقف المؤيدين لهذا الرأى من التشابه بين الدروز و بين جيرانهم من السوريين المسلمين فى هذه الناحية بالذات ؛ فالنسبة الدموية عند هؤلاء الأخيرين هى ٦١ر١ ، أى أنها لا تزيد عن النسبة الدموية للدروز إلا بحوالي ٠٢ر٠ و وهى زيادة يمكن إغفالها تماماً . إن الأسس الدموية فى دراسة الأجناس لا تزل فى بدايتها ، ومن الخير ألا نتعجل فى الاعتماد عليها الى أن تتسع دائرتها لتستند نتائجها الى بيانات أدق وأوفى .

كذلك يحسن الاشارة إلى جماعات الموارنة ، الذين يسكنون الى الشمال من الدروز ، والذين هم طائفة مسيحية انفصلت عن الكنيسة المسيحية فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، وأخذت تسميتها من القسيس (حنا مارون) ، الذى اتبعه الموارنة بعد أن تم لهم الانفصال . هذه الجماعة نظراً لعزلتها فى الجبال من جهة ، ولعدم تزاوجها مع المسلمين أو الدروز من جهة أخرى ، احتفظت بنقاوة كبيرة نسبياً ، كما يظهر فيها استدارة الرأس وارتفاعه مع تبطط فى القذال ، بشكل لا نعهده فيما يجاورها من جماعات .

ونحن وان كنا قد وضعنا كل الجماعات عريضة الرءوس فى قسم واحد فما ينبغى أن ننسى أن هنالك فروقاً محلية فى مدى غلبة استدارة الرأس ، نتيجة لدرجة تأثر تلك الجماعات بالعناصر التى تنزل على حافة الصحراء . ويكفى أن ندرس الرسومات البيانية التى تمثل توزيع النسبة الرأسية فى هذه العناصر ، لنرى أن خط توزيع هذه النسب بين اللبنانيين تظهر فيه قمة إضافية منخفضة نوعاً ما حول (٨٠ - ٩ ر ٨٠) ، وهى قمة لا نلاحظها فى حالة الأرمن مثلا ، مما يدل على أن هنالك عنصراً إضافياً يدخل فى التكوين الجنسى للبنانيين ، يمكن أن نربطه على أساس النسبة الرأسية بسكان المدن الواقعة على حافة الصحراء مثل دمشق وحمص وحلب .

ثالثا - فلسطين :

لاحظنا فى دراسة الجماعات المختلفة التى تسكن سوريا العظمى أن الرءوس العريضة تقل باطراد كلما تحركنا ناحية الجنوب ، حتى لتتضاءل نسبتها تضاءلا كبيرا بين سكان فلسطين . . ومثل هذه الظاهرة قائمة على طول الحافة الشرقية للصحراء السورية ، إذ أن أبحاث الأستاذ

(كرشنرز) تبين أن أصحاب الرءوس التى تشتد استدارتها يمثلون بنسبة قليلة جدا بين الجماعات التى تسكن فى شمال أرض الجزيرة ، ثم تزداد نسبتهم ضآلة فى جنوب العراق وفي الجزيرة العربية ، على حين ترتفع نسبة الرءوس المتميزة بالاعتدال في الاستدارة والرءوس الطويلة فى تلك الأقاليم .

يختلف سكان فلسطين إذاً اختلافا جوهريا عن معظم العناصر التى تسكن الي الشمال منهم عامة وعن سكان لبنان بوجه خاص ؛ والدراسة التاريخية لامتداد نفوذ الحيثيين – الذين يمكن أن يرجع اليهم نشر المميزات الأرمنية – تفسر هذا الاختلاف بوضوح ، فالمعروف أن الحيثيين قد مدوا نفوذهم على كل أرمينيا الأناضولية ، وغزوا أرض الجزيرة فى الشرق ، وسكنوا المناطق الجبلية والمناطق الساحلية فى سوريا لعدة قرون قبل الميلاد ، لكنهم لم يسكنوا فلسطين الا سكني مؤقتة ، كما أن عددهم كان قليلا .

والدراسة الانثروبولوجية لمن يسميهم الاستاذ (كابرز) عربا – من سكان المدن الواقعة شمال خط يمتد بين يافا وأريحة – تبين أن السكان هنالك من أصحاب الرءوس المتوسطة الذين يتفقون مع سكان منطقة حافة الصحراء من حلب ودمشق الى حدود شرقى الأردن .. وربما كان مرجع هذا الى الموجات الأرامية التى أتت من الشرق واستقرت حول دمشق وفي شمال فلسطين وشرقى الأردن ، إذ أن الأستاذ (بهل) يذهب الى أن الأراميين قد دخلوا شمال فلسطين عن طريق دمشق ، ساكنين جزءاً من وادى البقاع كما سكنوا شمال فلسطين ، وكما نزلوا على حافة الصحراء فى شرقى الأردن ممتدين على طول الحافة حتى حمص شمالا [1] .. وكذلك كانت الموجات البشرية المختلفة التى وصلت الي فلسطين تعمل على أن تبرز استطالة الرأس أو توسطها ، إذ كانت غالبية هذه الموجات آتية إما من الغرب بطريق البحر تحمل صفات عناصر البحر المتوسط ، أو من

(١) المعلومات قليلة عن الصفات الجثمانية التى كان الأراميون يتميزون بها ، فهنالك سيس وبترى يذهبان الى انهم عناصر فاتحة اللون زرقاء العيون من طلائع الشماليين (Proto Nordics) لكن هنالك من يعارض هذا الرأى ويعتبر الأراميين من الناحيتين اللغوية والجنسية متصلين بالمجموعات التى تتكلم اللغات السامية ، والثابت أن شكل الرأس فى الأراميين ليس فى استطالة رءوس العناصر الشمالية وانما يميل الى التوسط ، ولو ان هذا قد يكون نتيجة للاختلاط بين عناصر عريضة الرءوس كالحيثيين وعناصر طويلة الرءوس كالفينيقيين مثلا (راجع فى دراسة هذه النقطة كتاب الأستاذ (كابرز) عن الدراسة الأنثروبولوجية للشرق الأدنى صفحة ٦٩ .

الصحراء، تصل منها مباشرة، أو تمر أولا بأرض الجزيرة، وكل هذه الموجات كانت تحمل مؤثرات متشابهة لاتمت الى كثير من الصفات التى عرفناها فى بعض جماعات سوريا ولبنان بسبب كبير.

وليس فى الامكان أن يتعرض الباحث لدراسة سكان فلسطين دون أن يدرس وضع اليهود الجنسي بين سكان هذا الاقليم، لكن ينبغي عند التعرض لهذه الناحية أن نستبعد اليهود الذين دخلوا فلسطين بعد الحرب الماضية، لأن هؤلاء خليط لا تربط بينهم رابطة جنسية على الأساس العلمى الصحيح، كما ينبغى أن نشير الى أن اليهود بوجه عام لا يكونون وحدة جنسية منسجمة، على الرغم من أن هناك كتاباً يصفون اليهود بأنهم عناصر سامية نقية مختارة، ومن أن بعض الكتابات العلمية تصفهم بالتجانس الشديد (!). وما يهمنا فى هذا البحث أن نناقش هذه الآراء بالتفصيل، وانما يكفى أن نقرر هنا أن مثل هذا الانسجام لاوجود له الا فى مخيلة بعض الكتاب، إذ أثبت البحث الانثروبولوچى العميق أن التباين فى المميزات الجثمانية للجماعات اليهودية المختلفة تباين شديد، لا فى الصفات الظاهرية كلون البشرة والعين والشعر مثلا، بل يتجاوز هذا الى شكل الشعر وصفات الأنف وأبعاد الرأس وما الى ذلك: فهناك يهود سمر البشرة وآخرون يميلون الى البياض بشكل محسوس، وهنالك يهود زرق العيون ويهود سود العيون، بل ومن اليهود من يتجعد شعره ومنهم من يتموج فيه الشعر أو يستقيم.. والنسبة الرأسية نفسها – التى أشرنا الى أن غالبية العلماء يتخذونها الأساس الأول فى التمييز بين الأجناس – تهبط فى بعض اليهود الى (٦٥) وترتفع فى بعض منهم الى (٩٥)، وبهذا نكون أمام خليط غير متجانس تشتد فيه استطالة الرأس آونة وتعظم استدارتها آونة أخرى.. وعلى ذلك يمكن أن نفسر لِمَ مال بعض الكتاب الى تقسيم اليهود الى مجموعتين رئيسيتين: الأولى الـ (Ashkenazim)، الذين يمثلهم غالبية يهود أوروبا، والذين يتميزون بالوجه المستدير والأنف المحدب القصير والعيون الرمادية الصغيرة، والثانية مجموعة الـ (Sephardim)، الذين يمثلهم يهود اقليم البحر المتوسط، وهم لهذا يقربون فى صفاتهم الجثمانية من صفات سلالات البحر المتوسط، ذوو وجوه بيضاوية وأنوف ضيقة شماء وشعر أسود وعيون تأخذ فتحتها شكل (اللوزة).. ومع ذلك فكل هذا لون من التبسيط للصورة الجنسية المعقدة لليهود الحاليين، الذين لايمثلون فى عرف علماء الأجناس جنساً، بل هم خليط تأثرت كل مجموعة منه بالصفات الجثمانية للجماعة التى سكنت بينها.

ومن هنا كان التباين الكبير بينهم فى المميزات الجنسية على الرغم مما يربط بين اليهود من وحدة الأماني والدين [1] .

هذا عن العناصر اليهودية الحديثة ، أما اليهود قبل فترة الانتشار التى بدأت عندما وضع البابليون أيديهم على (أورشليم) حوالى ٥٨٦ قبل الميلاد فقدتكونوا نتيجة لموجات متعددة ، وصلت الى فلسطين فى فترات مختلفة ، وبطرق مختلفة ، وتحت زعامة مختلفة ، وإن كان بنو اسرائيل الذين يكونون العنصر الأساسي فى اليهود الحاليين - فيما يظهر - قبائل بدوية أو نصف بدوية تتكلم اللغة السامية ، جاءوا من الصحراء وسكنوا أولا على حافتها فى جنوب العراق ، ثم تحركوا الى أن هبطوا فلسطين حيث مثلوا العناصر التى سبقتهم الى سكنى هـذا الاقليم . . وفى الامكان اعتبار هؤلاء اليهود من عناصر البحر المتوسط أساساً ، وإذاً فقد كان تكوينهم الجنسى بسيطا ، ما داموا أصلا ينتمون الى هذه العناصر ، وما دام الذين سيمثلونهم يرجعون الى هذه العناصر أيضاً مع وجود أثر بسيط للرءوس العريضة بطبيعة الحال [2] . أما ماظهر فيهم بعد ذلك من صفات جثمانية أبعدتهم عن صفاتهم الأولى وقربتهم - فى رأى بعض الكتاب - من الأرمن فهذه مظاهر مرجعها الى اختلاط فى الفترات المتأخرة ، لم يتم فى فلسطين نفسها وإنما تم خارج تلك البلاد ، سيما إذا لاحظنا أن طريقهم فى الانتشار كان لابد من أن يؤدى الى نتيجة من هذا القبيل [3] .

---

(١) هنالك دراسة ملخصة للوضع الجنسى لليهود فى كتاب
Julian Huxley (and others) = We Europeans, Pelican Books, 1939, pp. 152-156.

(٢) لقد كان يسكن فلسطين حوالى منتصف القرن الثانى ق . م جماعات متعددة ، فالى جانب الاسرائيليين كان يسكن العامريون الى الشمال والكنعانيون فى أرض كنعان ، وكذلك كان يعيش الفلسطينيون الذين انتشروا فى شرق البحر المتوسط حوالى ١٢٠٠ ق . م آتين فيما يغلب من اقليم بحر إيجه . هذا الى جانب بعض العناصر الحيثية التى لابد من أن يكون أثرها قد وصل الى بعض جهات فلسطين فى فترة توسع امبراطورية الحيثيين . راجع تلخيصا لذلك كله فى

ا ــ كتاب الأستاذ (كون) عن أجناس أوروبا صفحات ٤٣٢ الى ٤٣٤ .

ب ــ كتاب الأستاذ (هادن) عن الأجناس البشرية صفحات ٩٨ و ٩٩ .

(٣) يرجح بعض الكتاب اعتبار اليهود أصلا عناصر عريضة الرءوس ومن هؤلاء الكتاب الأستاذ (كارز) الذى أشرنا الى كتابه عن الدراسة الانثروبولوجية للشرق الأدنى ، راجع صفحة ٦٠ وما بعدها .

لامناص إذاً من التفريق فى الناحية الجنسية بين اليهود الأصليين الذين سكنوا فلسطين واستمروا فيها (فهؤلاء جنسياً أقرب الى العرب) و بين العناصر اليهودية الحديثة التى هي غريبة، لاعن فلسطين وحدها بل وعن يهود فلسطين الأصليين ... وما دمنا بصدد الكلام على اليهود فيصح أن نتذكر أن هنالك جاليات يهودية لها أهميتها تتركز فى الأقطار العربية الأسيوية خارج فلسطين :

ا — جالية بالعراق ، بدأت سكناها لهذا الاقليم على شكل مستعمرات يهودية تأسست فى القرن السادس ق . م ، وقد ازدهرت هذه المستعمرات اليهودية فى ظل الحكم الاسلامى ثم قل عددهم تحت سلطان الأتراك ، فأصبحوا الآن حوالى مائة وعشرين الفا بعد أن كانوا يتجاوزون المليون حسب ماذهب اليه (كون) .

ب — يهود بلاد العرب ، وهؤلاء كان عددهم كبيراً فى وسط شبه الجزيرة وجنوبها فى القرون السابقة مباشرة للاسلام ، وان كان هنالك شك فى التاريخ الذى وصلوا فيه والطريق الذى اتبعوه . لقد كان لهؤلاء مستعمرات فى مدن الحجاز واليمن ، كما تحول عدد كبير من أهل سبأ الى اليهودية ، ثم ظهر الاسلام فطرد اليهود من الحجاز ، وبهذا أصبحوا لا يوجدون الآن الا فى اليمن ، وهم فى ذلك القطر يقسمون بحسب لون العمل الذى يمارسونه الى طائفتين : فهنالك يهود المدن الذين يسكنون صنعاء وتعز وغيرهما و يشتغلون بالتجارة ؛ وهنالك يهود الريف الذين يعملون فى الزراعة ، وهؤلاء أقل من يهود المدن عددا [1] .

رابعا — نجد والحجاز :

إن الدراسة الأنثروبولوجية لسكان نجد والحجاز دراسة ناقصة لحد كبير ، وما تزال معلوماتنا عن غالبية هؤلاء السكان معلومات اجتهادية تقريبية ، تعتمد على دراسة عدد قليل ممن يصادفهم البحاث فى الشمال أو الجنوب . ومن الكتاب من يأخذ بالنتائج التى وصل اليها الأنثروبولوجيون من دراستهم للجماعات البدوية التى تضرب فى الصحراء السورية ، اعتماداً على مايذهبون اليه من وحدة الجنس بين هذه الجماعات و بين أهالى نجد والحجاز . كل هذا يجعل من الصعب

(١) يعطى الأستاذ (كون) فى كتابه عن أجناس أوروبا مقاسات مفصلة ليهود اليمن فى المناطق المختلفة بها : (راجع صفحات ٤٣٨ إلى ٤٤١) .

الوصول الى نتائج نهائية فى الدراسة الجنسية لهذا الجزء من أقطار الشعوب العربية الأسيوية ، لكن هذا لايمنع من أن نضيف الى ماسبقت الاشارة اليه من حقائق الملاحظتين الآتيتين :

الأولى أن كل المناطق الواقعة شمال « الربع الخالى » تكون مع قبائل شرق الأردن والصحراء السورية وحدة جنسية ، ومعنى هذا أن الحد الشمالى لبلاد العرب من الناحية الجنسية ليس هو الحد السياسى الحالى ، وانما يعينه خط يسير مع الحدود الجنوبية لما يسمى بسهول الهلال الخصيب ، وإذاً فمن الضرورى أن نضم الى سكان شمال بلاد العرب قبائل « كالروله وشمر والحويطات» ،وهؤلاء يتكونون أساساً من عناصر البحر المتوسط ، بل لعلهم يمثلون أنقى سلالات هذه المجموعة فى تلك الأقطار ، وبهذا يمكن أن نتلمس بينهم العربى المثالى بالصفات التقليدية التى يعرف عادة بها .

الثانية أن الحجاز -بحكم مركزه الدينى وملاءمة بعض جهاته لحياة الحضر - أصبح سكان مدنه المعروفة ، جدة ومكة والطائف والمدينة ، شديدى الاختلاط ، فيهم من دماء مسلمى الهند وأهل الملايو ، بل ومن سكان التركستان وزنوج افريقية ومسلمى الصين و . . و . . وإذا كان هذا لايمنع من وجود عناصر من السكان الأصليين لم تتأثر بهذا الاختلاط ، ولا يتنافى مع ما نصادفه هنالك من عائلات قديمة لاتزال تحتفظ بكثير من نقاوتها الجنسية [1] ، فإن عملية الاختلاط مستمرة ، وسوف تشتد بمرور الزمن وضوحاً ، بحيث تفقد الحجاز شخصيتها الجنسية تماماً ، وتصبح على ممر السنين من الأقاليم التى يتعقد تكوينها الجنسى ، تعقداً تساهم فيه المجموعات الجنسية المختلفة التى أشرنا اليها .

---

(١) يشير الأستاذ (كون) فى كتابه الذى أشرنا اليه إلى أن العائلات الحجازية القديمة يمكن أن توضع بسهولة فى مجموعة متميزة ، يصفها بالقامة المتوسطة وبالرأس الذى تأتى نسبته بين التوسط والاستدارة . . . ويذهب هذا الكاتب الى انه وان لم تكن هنالك أسس علمية يفهم على ضوئها حقيقة هذا العنصر الحجازى الذى يأخذ مظهراً ألبيا ، فان وجوده حقيقة يقررها أولو العلم بسكان الحجاز، بل إن (كون) ليذهب الى أكثر من هذا فيرى ان جماعات من هذا العنصر قد وصلت مع التوسع الاسلامى الى شمال افريقية وكانت مسئولة عن ظاهرة استدارة الرأس التى نلاحظها بين العائلات الارستقراطية فى كثير من مدن شمال افريقية . ومن الضرورى أن نكون حريصين فى قبول مثل هذا الرأى الى أن تكون امامنا مقاسات كافية لأهالى الحجاز نستطيع على ضوئها أن نتبين مافى هذا الرأى من خطأ أو صواب : راجع كتاب (كون) صفحة ٤٠٩ .

الفرق إذاً كبير بين النقاوة الجنسية لسكان نجد والاختلاط الشديد فى سكان الحجاز عامة ومدنها المعروفة بوجه خاص . ومثل هذا التباين بين النقاوة فى نجد والاختلاط فى الحجاز يؤيد تماماً ما ذهب اليه (ابن خلدون) فى أكثر من مناسبة فى مقدمته ، مؤكدا أن الصريح من النسب إنما يتحقق لسكان البوادى والضاربين فى قلب الصحراء .

خامسا — الأقاليم العربية الجنوبية :

فإذا ما تركنا إقليم شمال الجزيرة العربية وانتقلنا جنوباً ، فنحن فى أرض العرب الجنوبيين ، وهؤلاء وإن اتفقوا مع الشماليين فى صغر حجم الرأس ، فإنهم يختلفون عنهم اختلافاً واضحاً فى كثير من الصفات الجثمانية الأخرى ، فنحن هنا أمام عناصر تبدو فيها - الى جانب مميزات الشعر الخاصة ولون البشرة الذى تشتد سمرته - استدارة الرأس واضحة ، بشكل لم نعهده بين العرب الشماليين ، الذين يتميزون باستطالة الرأس أو توسطها ، واذا وجدت بينهم رءوس عريضة فنسبتها ضئيلة جداً الى مجموع عدد السكان . كذلك تتعدل مميزات الوجه التى عرفناها بين العرب الشماليين ، وما يصادفنا إلا قليلا تلك التقاطيع الواضحة الحادة التى عهدناها فى أهل الشمال .

ولقد أرجعنا ذلك إلى موقع هذا الاقليم بالنسبة للمجموعات الجنسية المحيطة ، والى الصلات التى كانت تربط بين العرب الجنوبيين ومن جاورهم من العناصر الأخرى .هذا من ناحية الخلط الجنسى الذى يسود فى هذا الاقليم ، أما سر وجود الرءوس العريضة هنا فقد أرجعناه إلى هجرات لعناصر عريضة الرءوس ، يربطها بعض الكتاب بهجرات أرمنية ، ويستبعد كتاب آخرون إمكان وصول مثل هذه الهجرات الى أقصى جنوب شبه الجزيرة ، ولهذا فهم يرجعون ظاهرة استدارة الرءوس الى عناصر إيرانية، اضطرت أمام ضغط موجات آتية من الشرق الى أن تتحرك غرباً ، عابرة الخليج الفارسى ، ومؤثرة فى عمان وما يقع الى الغرب من هذا الاقليم .

هذه الفوارق الجنسية البارزة بين عرب الشمال وعرب الجنوب لم تكن فيما يظهر خافيةعلى كتاب العرب أنفسهم ، ولذا نجد نسابتهم يقسمون العرب الى قسمين ، «عاربة» و «مستعربة» ويرجعون كل قسم منهما إلى أصل مختلف ، فالجنوبيون من العرب ينتسبون الى (قحطان) ، أما الشماليون فينسبونهم الى (عدنان) . على أننا وإن أشرنا الى هذا الاتفاق فى تقسيم سكان

الجزيرة العربية بين نتائج الدراسة الانثروبولوجية وبين ماذهب اليه مؤرخو العرب ونسابتهم ، فليس معنى هـذا أن القحطانيين كلهم عراض الرءوس وأن العدنانيين جميعاً طوال الرءوس ، إذ الموضوع ليس بهذه البساطة ، وسنرى فى سياق البحث أن الأمر لايعدو مجرد تغليب صفة على أخرى ، وأن أصحاب الرءوس الطويلة يمثلون فى الجنوب كما يمثل أصحاب الرءوس العريضـة فى الشمال [1] . ولعل من المفيد أن نؤكد أنه مع كل هذه الفروق التى رأيناها تميز عرب الشمال عن عرب الجنوب ، فان ذلك لا يمنع مطلقاً من أن نرد المجموعتين الى أصل جنسى واحد ، له صفاته العامة المشـتركة التى تعدلت بعض مظاهرها فيما انحدر عن هذا الأصـل المشترك من فروع .

وعلى الرغم من هذا الوصف العام فإن أجزاء البلاد العربية الجنوبية تختلف فى تفاصيل تكوينها الجنسى من اقليم الى آخر ، وسـنحاول الآن أن نعطى صورة خاطفة تقرب الواقع الى الأذهان .

١ — **اليمن** : لابد فى الكلام على اليمن وسكانها من التفريق بين سكان المرتفعات وأهل السهول ، إذ الواقع أن الحائط الجبلى الذى يكون حافة الهضـبة فى الغرب ، والذى يرتفع الى حوالى عشرة آلاف قدم ، قد وقف حائلا دون توغل سكان الساحل الى إقليم المرتفعات

---

(١) يشير الأستاذ (سلجمان) الى وجود الرءوس العريضـة الى جانب الرءوس الطويلة فى الأقطار التى وصلت اليها الموجات العربية مع انتشار الاسلام ، فقد ثبت هذا من دراسة عدد من الجماجم الموجودة بمتحف فلورنس وهى لسكان من طرابلس ، كما عثر فى مقبرة قرب مدينة القاهرة يرجع تاريخها الى أوائل عهد دخول الاسلام على مجموعة من الجماجم تمثل عناصر عريضة الرءوس ، ترتفع النسبة الرأسية فيها الى حوالى (٨٥) راجع كتاب :

C.G. Seligman = Races of Africa, London 1930, P. 234.

كذلك ثبت من الدراسه الأنثروبولوجية المفصلةلمديرية الشرقيةوجود اختلاف فى شكل الرأس بين جهات المديرية المختلفة ، فعلى حين يمثل ذوو الرءوس العريضة تمثيلا واضحاً فى الشمال الشرقى للمديرية ، نجد أن الرءوس الطويلة واضحة جداً بين سكان مركز بلبيس بوجه خاص ، وقد تبين من تتبع الموجات التى وصلت الى المديرية بعد الفتح الاسلامى لمصر ان غالبية القبائل التى سكنت الأطراف الشمالية الشرقية لهذه المديرية كانت لقبائل قحطانية على حين ان اقليم بلبيس قد سكنته جماعات من (قيس عيلان) وهم عرب شماليون . راجع الفصل الأول والثالث من كتاب :

Abbas Ammar = The People of Sharqiya, Cairo 1944.

الداخلية ، بسبب الاختلاف فى الارتفاع وما يتبع هذا من تباين فى المناخ . . وفى الامكان أن نميز داخل بلاد اليمن عدة أقاليم جنسية لايصعب أن نفرق بين مايسكنها من جماعات :

ا — أما سكان الهضبة فيكونون فيما يظهر أنقى عناصر البحر المتوسط فى بلاد اليمن ، لكن هذه العناصر النقية – التي يمكن أن نربطها بسكان بلاد العرب الشمالية – إنما يقتصر توزيعها على المنطقة الواقعة حول (صنعاء) ، أما الاقليم الجبلى الواقع فى جنوب بلاد اليمن الى جوار (يريم وتعز وإب) فتسكنه جماعات خليطة من عناصر البحر المتوسط وعناصر ترتبط بالمجموعة (القداوية) التى نجد ما يمثلها فى بعض جهات الهند . على أنه حتى فى أشد جهات الهضبة نقاوة فى التكوين الجنسى ،يمكن أن نلمس فروقا ثانوية بين السكان ، فقد أشار الأستاذ (كون) مثلا الى وجود عناصر بين الجند ورجال الدين تشتد فيها استطالة الرأس وطول القامة ، أطلق هو عليها اسم (Atlanto-Mediterranean Types) ، كما لاحظ أن الذين يدعون لأنفسهم الانتساب الى الرسول من بين سكان الهضبة أفتح بشرة وأشد شقرة من غيرهم من السكان [١] .

ب — وعلى طول السهل الساحلى – حيث لا تلائم الظروف المناخية سكنى العناصر البيضاء – يسكن زراع من الزنوج الأرقاء ، لكن هـذا لا يمنع من وجود عناصر من الزراع غير الزنوج الذين ينتمون الى عناصر البحر المتوسط . . ولعل من المفيد أن نشير هنا الى وجود عنصر من هؤلاء الزراع الذين تظهر فيهم صفات الزنوج ، يرجع تاريخه الى فترة قديمة ، وقد يكون – فى رأى بعض الكتاب – بقية من بقايا حكم الأحباش لهذا الاقليم فى الفترات السابقة للاسلام .

حـ — ثم يبقى بعد هذا تلك العناصر التى تعيش فى القرى والمدن، والتى تظهر فيها صفات أهل الملايو ، وإن ظهر الى جانب هذا صفات تشبه المميزات الأرمنية ، سواء فى شكل الأنف أو فى شكل الرأس ، لكن الغريب أن صفات أهل الملايو لا تتجاوز سكان الساحل بحال من الأحوال ، مما يشير الى ارتباطها بالنشاط التجارى البحرى الذى كان قائما بين اقليم الملايو والأطراف الجنوبية للجزيرة العربية.[٢]

(١) تراجع صفحة ٤٠٨ من كتابه مع ملاحظة أنه علل هـذه الظاهرة الأخيرة بما يأتى ، وهو تعليل يجب أن يقبل بتحفظ شديد :

" There may perhaps have been a Nordic strain associated with the holy families who entered from Hijaz in early post-Islamic times „

(٢) يصح أن نشير هنا الى أنه وان لم يكن لدينا دراسات محددة لسكان بلاد عسير فانهم من حيث مميزاتهم الجنسية يرتبطون بسكان الهضبة من اليمنيين اكثر من ارتباطهم بسكان الحجاز .

٢ — **حضرموت** : نحن هنا أمام عناصر خليطة لابد من أن تربط بالكيان الجنسى للمنطقة الجنوبية كلها ، وفى الامكان أن نقرب الصورة الجنسية لسكان هذا الاقليم إذا أشرنا الى أن التركيب الجنسى لهم إنما يدخل فيه العناصر الآتية على الأقل ، مع تفاوت فى الأهمية النسبية لكل منها ، تفاوتاً يمكن أن يفهم على ضوء ماسبقت الاشارة اليه من حقائق :

ا — هنالك عناصر عربية تسكن وادى (حضرموت) نفسه ، أتت الى حضرموت من الشمال ومن الغرب فى عهود سابقة للاسلام وعهود لاحقة لانتشار هذا الدين ، وهذه العناصرمن السهل أن نربطها بمجموعة البحر المتوسط ، التي تسكن وسط بلاد العرب وشمالها من جهة ، وتمثل فى هضبة اليمن من جهة أخرى .

ب — عناصر زنجية افريقية ، أُتى بها لتعمل فى الزراعة منذ العصور الوسطى ، إن لم يكن وصولها سابقا لذلك ، وهذه العناصر الزنجية ـ سواء كانت من الرقيق أم من المعتقين ـ لا تزال تكون مجموعة كبيرة يطلق عليها اسم (الحجَرِيّة) ، لا تختلط بالعرب الذين يحتفظون بكثير من صفاتهم المعروفة ، على أن هذا ليس معناه انعدام الاختلاط بين المجموعتين ، بل كل ما نعنيه هو أن السلالة المهجَّنة تبقى غالباً منتسبة الى الحجرية لا إلى العرب . . وما يقتصر وجود الحجرية على إقليم حضرموت ، بل إن جماعات منهم تعيش في سهول اليمن الجنوبية .

ويعيش فى حضرموت ـ الى جانب هؤلاء الحجرية ـ جماعات من الصوماليين ، تنتشر قراهم على طول الساحل وفى وادى حضرموت نفسه ، والظاهر أن وصول هذه العناصر ظاهرة حديثة ، بدليل أنها لاتزال تحتفظ بلغتها وعاداتها ، وبدليل أنها لاتزال تقاوم عملية تمثيلها بالعناصر الأخرى ، سواء فى الصفات الجثمانية أم فى مميزات الحضارة.

حـ — عنصر أسيوى ، ترجع أصوله الى اقليم الملايو . وقد سبقت الاشارة الي ما كان يقوم بين هذه المناطق من بلاد العرب و بين اقاليم الملايو من علاقات . . والملاحظ هنا أن أثر أهل الملايو إنما يظهر فى الطبقات الأرستقراطية وحدها (مع استثناء طبقة الأسياد) ، أما الجماعات البدوية والجماعات الزنجية فقد ظلت بعيدة عن هذه المؤثرات لحد كبير .

ء -- عناصر يمكن أن نربطها بالمجموعة الڤداويه ، التى أشرنا الى أن آثارها موزعة على امتداد المناطق الساحلية فى جنوب بلاد العرب من جنوب اليمن غرباً الى أرض الظَّفار شرقا ، كما توزع خارج الجزيرة العربية فى بعض جهات السواحل الشمالية للمحيط الهندى مثلا ، وسكان

حضرموت الذين يمكن ربطهم بهذه المجموعة يتميزون بالجسم النحيف والرأس الصغير والشعر الذي يأخذ غالبا شكل الحلقات.

٣ — **عمان**: والحال في عمان يقرب مما لاحظناه فى التكوين الجنسى العام للأقاليم الواقعة فى الجنوب والجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية، فعناصر البحر المتوسط ممثلة هنا وإن كان هذا بدرجة أقل مما لاحظناه فى اليمن مثلا، وأصحاب الرءوس العريضة يكثرون بين سكان عمان. وإذا كان العمانيون أبعد ما يكونون عن صفات الزنوج، فان هنالك جالية كبيرة من العناصر الزنجية تسكن مراكز زراعة النخيل وغيرها فى عمان، وتلك العناصر الأخيرة فى الواقع أثر من آثار العلاقة التجارية التى كانت قائمة بين عمان وشرقى افريقية، ونتيجة طبيعية لما كان يرتبط بهذا من تجارة الرقيق.

الأقسام الجنسية لشعوب الأقطار العربية الأسيوية:

نخرج من هذا كله بحقائق بارزة، تصفى لنا الموقف فى الدراسة الجنسية لشعوب الأقطار العربية فى آسيا وأهم هذه الحقائق هى:

أولا — إن وصف شعوب هذه الأقطار بأنها «شعوب عربية» لا يمكن أن يعتمد على الأسس الجنسية التى يحددها علماء الأجناس، وإنما العامل المشترك بينها جميعاً هو عامل اللغة التى هى أبرز مظاهر المميزات الثقافية.

ثانياً — إن الكتلة الجنسية التى تتسع رقعتها فى الأقطار العربية الأسيوية هى كتلة عناصر البحر المتوسط بصفاتها المعروفة، تأخذ أشد مظاهر نقاوتها فى قلب الصحراء، ثم تقل هذه النقاوة كلما تحركنا شمالا أو انتقلنا ناحية الجنوب.

ثالثاً — إن أبعد العناصر عن هذه الكتلة الجنسية الغالبة هى المجموعات التى تتمتع بشبه عزلة جنسية، استطاعت معها أن تحتفظ بمميزاتها الأرمنية، وإن كانت قد عجزت عن أن تتفادى المؤثرات الخارجية فى بعض مظاهر الثقافة كاللغة مثلا.

رابعاً — إن شعوب الأقطار العربية الأسيوية يمكن أن نقسمها على ضوء الحقائق التى فُصّلت الى الأقاليم الجنسية المتميزة الآتية:

١ - إقليم يحده من الجنوب خط يوازى الحدود الشمالية لأراضى الهلال الخصيب ،تدخل فيه المناطق الجبلية .

٢ - إقليم يشمل الأراضى التى تقع الى جنوب الاقليم السابق حتى صحراء الربع الخالى فى الجنوب .

٣ - الإقليم الانتقالى بين الاقليمين الأول والثانى ، يدخل فيه جنوب العراق ومعظم فلسطين والمنطقة الواقعة على حافة الصحراء .

٤ - إقليم اليمن وتضم اليه بلاد العسير .

٥ - إقليم عمان.

٦ - الاقليم الانتقالى بين إقليم اليمن من جهة وإقليم عمان من جهة أخرى .

جامعة الدول العربية فى ضوء الدراسة الجنسية لهذه الدول :

والآن وقد رأينا أن الوحدة الجنسية بين شعوب الأقطار العربية الأسيوية ليست وحدة تامة ، وأن هنالك اختلافات تفصيلية فى المميزات الجثمانية بين كثير من الجماعات التى تسكن هذه الأقطار ، فما صلة هذا كله بتكوين جماعة الأمم العربية ، وما مبلغ الأثر الذى قد تتركه مثل هذه الحقيقة فى توجيه التفكير فى هذا الموضوع ؟ ؟ إن من الكتاب فى هذه المسائل من يرى أن وحدة الشعوب أمر يتطلب انسجاماً تاماً فى التكوين الجنسى لها ، ويستلزم اتفاقاً فى رابطة الدم وصلة الأنساب. ونحن وإن كنا نسلم بأن الوحدة المثالية قد تستدعى مثل هذا ، فإننا لانكاد نلمس لمثل هذه الوحدة وجوداً فى غالبية دول العالم وقومياته ، إن تركنا جانباً روابط الثقافة ، ورحنا نحلل كيانها الجنسي على الأسس العلمية التى وضعها علماء الأجناس لتقسيم الجماعات والشعوب ، فالجزائر البريطانية والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا والاتحاد السوفييتى و .. كل هذه وحدات يتداخل فى التكوين الجنسي لكل وحدة منها عناصر متعددة ، تتقارب أحياناً وتتباعد أحياناً أخرى ،ومع ذلك لم يمنع عدم التجانس الذى نلمسه بين سكانها من وجود صلات قوية جداً بين تلك العناصر المختلفة ، ترتكز على رابطة المكان من جهة ، وعلى ماتحققه تلك الصلات من فوائد اقتصادية وسياسية وحربية ، فوائد ما كان يمكن أن تتحقق لو ظلت تلك العناصر مفككة متنافرة ، تتجه كل منها اتجاهاً فردياً لا تتقيد فيه باتجاهات العناصر الأخرى .

فاذا ثبت لنا وجود العوامل الأخرى اللازمة لتكوين وحدة جامعة الأمم العربيــة ، واتضح لنا أن هنالك منافع اقتصادية وسياسية مؤكدة يمكن أن تجنيها الأقطار العربية من اتحادها، وتذكرنا دائما أن فكرة جامعة الأمم العربية لا ترمى الى الاندماج والانصهار بل انه سيحتفظ لكل وحدة فيها بشخصيتها وذاتيتها ، فما ينبغى أن يعوق تحقيق قيام مثل هــذه الجامعة مايعترى انسجامها الجنسى من ضعف في بعض الأقطار ، سيما إذا أدركنا أن العناصر الجنسـية الأساسية بين سكان الأقطار العربية الأسيوية جميعا لا تتباعد تباعدا مُنفرًا فى تكوينها الجنسى ، وسيما إذا تنبهنا الى أن هذه الأقطار إنما يجمع بينها وحدة اللغة ، ويوحد بين غالبية سكانها عامل الدين ، واللغة والدين من أقوى العوامل التى تقرب بين الشعوب وتربط بين مختلف القوميات .

مراجع البحث

أولا — المراجع العربية :

ليس هنالك لسوء الحظ دراسات علمية لشعوب الأقطار العربية ، وكل ما لدينا كتابات عامة بعضها عن العرب وقبائلهم فى الاقطار المختلفة ، و بعضها عن العشائر والبطون الضاربة فى قطر معين من تلك الأقطار ، ومثل هذه الكتابات ، إن أفادت فى الدراسة التاريخية أو النواحى الاجتماعية ، أما الحقائق الجنسية والتفاصيل الأنثروبولوجية فلم تلق فى المؤلفات العربية الى الآن ما تستحقه من عناية . . وفيما يلى أهم المراجع العربية التي قد يجد الباحث فيها مادة تنير له السبيل فى بعض نواحى الدراسة لشعوب الأقطار العربية الأسيوية ، وإن كنا ننبه الى ضرورة الحرص فى الأخذ بكثير مما ذهبت اليه غالبية الكتاب فيما نشير اليه من مؤلفات:

١ - صفة جزيرة العرب للهَمْدانى ٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ - الأغانى لأبى الفرج الاصفهاني ٤ - العبر لابن خلدون ٥ - صبح الأعشى ونهاية الأرب وقلائد الجمان للقلقشندى ٦ - سبائك الذهب لأبى الفوز البغدادى ٧ - مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ٨ - جمهرة النسب لابن حزم الظاهرى ٩ - بلوغ الأرب للسيد شكرى الالوسي ١٠ - القضاء بين البدو للسيد عارف العارف ١١ - جزيرة العرب فى القرن العشرين للشيخ حافظ وهبه ١٢ - جغرافية العراق لطه الهاشمى ١٣ - صفحة من تاريخ أعراب شمالى الشام لوصفى زكريا ، بمجلة الثقافة التى تصدر بدمشق فى الجزء السابع من السنة الأولى (١٩٣٣) وما يلى ذلك من أجزاء ١٤ - المدخل الشرقى لمصر لعباس عمار ١٥ - تاريخ شرق الأردن وقبائلها تأليف فردريك بيك وتعريب بهاء الدين طوقان .

ثانيًا - المراجع الأفرنجية:

1. Ammar, A.M. = Physical Measurements and Serology of the People of Sharqiya. (Jour. Roy. Anthr. Institute, Vol. LXX, Part 11, 1940).

2. " " = Racial Elements in the North - Eastern Province of Egypt (Jour. Roy. African Society, 1941 - 1942).

3. " " = The People of Sharqiya, 2 Volumes, Cairo 1944.

4. Barton, G.A. = Semitic and Hamitic Origins, Philadelphia 1934.

5. Burckhardt, J.L. = Notes on the Beduins and Wahabys, Vol. 1, London 1831.
6. Buxton, L.H.D. = The Peoples of Asia, London 1935.
7. Chantre, E. = Recherches Anthropologiques dans l'Asie Occidentale, Lyon 1895.
8. Coon, C.S. = Races of Europe, NewYork 1939.
9. Deniker, J. = Les Races et les Peuples de la terre, Paris 1926.
10. Field, H. = The Arabs of Central Iraq, Chicago 1935.
11. Glubb, J.C. = The Beduins of Northern Iraq (Jour. Roy. Central Asiatic Society, Vol. XXII, 1935).
12. Haddon, A.C. = The Races of Man, Cambridge 1929.
13. „ „ = Wanderings of Peoples, Cambridge University Press 1911.
14. Hooton, E.A. = Up from the Ape, London 1931.
15. Herdlicka, A. = The Coming of Man from Asia (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XVII, 1920).
16. Huxley, J. & others = We Europeans (Pelican Books, 1939).
17. Kappers, C.U.A. = An Introduction to the Physical Anthropology of the Near East, Amsterdam 1934.
18. Keith, (Sir Arthur) = The Racial Characters of the Southern Arabs (Appendix 1 to B. Thomas's book on Arabia Felix).
19. „ „ = Introduction to Henry Field's Book on the Arabs of Central Iraq.
20. Krischner H.T.M. = The Anthropology of Mesopotamia and Persia (Proc. Roy. Acad. Amsterdam Vol. XXXIII, 1930; Vol. XXXIV, 1931).
21. Leys, N.M. & Joyce, A.T. = Notes on a series of Measurements from East Africa (Journ. Roy. Anthr. Institute Vol. XLIII 1913).
22. Luschan, V. = The Early Inhabitants of Western Asia (Jour, Roy. Anthr. Institute, Vol. XLI, 1911).
23. Musil, A. = Arabia Deserta, NewYork 1927.
24. „ „ = The Manners and Customs of the Rwala Beduins, NewYork 1928.
25. Parr. L.W. = Blood Studies on Peoples of Western Asia and North Africa (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XVI, 1931).
26. „ „ = Isohemagglutination studies on Near Eastern Race Groups (Chapter X in Kapper's Book on the Anthropology of the Near East).
27. Pittard, E. = Race and History, London 1927.

28. Ripley, W.Z. = The Races of Europe, London 1899.

29. Sayce, A.H. = The Races of the Old Testament, London 1925.

30. Seligman, C.G. = Some Aspects of the Hamitic Problem in the Anglo-Egyptian Sudan (Jour. Roy. Anthr. Institute. Vol. XLIII, 1913).

31. " " = The Physical Characters of the Arabs (Jour. Roy. Anthr. Institute Vol. XLVII, 1917).

32. " " = Races of Africa, London 1930.

33. Seltzer, C.C. = The Racial Characteristics of Syrians and Armenians (Papers of the Peabody Museum of American Archaeology and Ethnology, Harvard University, Vol. XIII No. 3, 1936).

34. Sergi, G. = The Mediterranean Race, London 1901.

35. Shanklin, W.M. = Blood Grouping of Rwala Beduins (Jour. Immunol. Vol. XXIX, 1935).

36. " " = The Anthropology of the Rwala Beduins (Jour. Roy. Anthr. Institute, Vol. LXV, 1935).

37. " " = Anthropology of the Akeydat and the Mualy Beduins (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XXI, 1936).

38. " " = Blood Grouping of the Mualy and Akeydat Beduins (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XXI, 1936).

39. " " = Anthropometry of Syrian Males (Jour. Roy. Anthrop. Institute, Vol. LXVIII, 1938).

40. " & N. Izzedin = Anthropology of the Near East Female (Amer. Jour. Phys. Anthropology, Vol. XXII, 1937).

41. Thomas B. = Arabia Felix, London 1932.

42. Worrell, W.H. = A Study of Races in the Ancient Near East, Cambridge, 1927.

ملاحق

أولا – الجداول الاحصائية :

١ – المساحة وعدد السكان فى الأقطار العربية الأسيوية .
٢ – توزيع السكان فى سوريا ولبنان حسب طوائفهم الدينية .
٣ – توزيع السكان فى فلسطين بحسب دياناتهم .
٤ – توزيع السكان فى العراق حسب طوائفهم ومذاهبهم الدينية .
٥ – المقاسات الأنثروپولوچية الاساسية لأهم الجماعات فى الدول العربية الأسيوية .
٦ – توزيع مجموعات الدم بين أهم الجماعات فى الأقطار العربية الأسيوية .

ثانيا – الرسوم البيانية :

١ – توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات العريضة الرءوس فى سوريا ولبنان .
٢ – « « « « سكان الحافة الغربية للصحراء السورية .
٣ – « « « « الجماعات العربية والبدوية فى سوريا وشرق الأردن وفلسطين وجنوب الجزيرة العربية .
٤ – « « « « الجماعات التى تسكن شمال العراق .
٥ – « « « « « « « « « وسط العراق .

ثالثا – الخرائط :

١ – خريطة تبين الدول العربية الأسيوية .
٢ – « « الهجرات البشرية الرئيسية فى جنوب غربى آسيا .
٣ – « لتوزيع أهم الجماعات فى سوريا ولبنان .
٤ – « « « « « شمال العراق .

جدول رقم (١) الأقطار العربية الأسيوية مساحة وسكاناً[1]

القطـــر	المساحة (كم ٢)	عـدد السكان
سوريا	١٧١ر١٠٤	٣ر٨٨٣ر٦٣٨ (١٩٤٢)
لبنان	١٠ر١٧٠	١ر٠٢٢ر١١٤ («)
فلسطين	٢٧ر٠٠٩	١ر٥٣٨ر٥٩٩ («)
شرق الأردن	٩٠ر٠٠٠	٣١٠ر٠٠٠ (١٩٣٨)
العــــراق	٤٥٣ر٥٠٠	بين ٣ مليوناً ٣ر٥ مليوناً
مستعمرة عدن	١٢١	٤٥ر٩٩٢ (١٩٣١)
حماية عدن	٣٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠
الكويت		٦٠ر٠٠٠
مسقط وعمان	١٣٢ر٠٠٠	٥٠٠ر٠٠٠
مملكة العرب السعودية	١ر٢٨٧ر٠٠٠	٣ر٠٠٠ر٠٠٠
اليمن	١٢١ر٠٠٠	بين ٣ مليوناً و ٥ ر٤ مليوناً
البحرين	٦٠٠	١٢٠ر٠٠٠

(١) اذا استثنينا سوريا ولبنان وفلسطين والعراق فالأرقام لباقى الأقطار العربية الأسيوية تقديرية لادقة فيها ، كذلك يلاحظ أن إحصاء البدو أمر على درجة كبيرة من الصعوبة حتى فى الأقطار التى يوجد لها إحصائيات على شىء من الدقة .

ويستطيع القارىء أن يرجع — إن شاء إحصائيات أوفى — الى الجـداول المفصلة التى تصـدرها دول مثل سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ؛ وهنالك جداول تلخيصية لا بأس بها فى كتاب :

Statistical Handbook of Middle Eastern Countries (Published by the Economic Research Institute - Jewish Agent for Palestine), Jerusalem 1944.

جدول رقم (٢) : توزيع السكان فى سوريا ولبنان بحسب مذاهبهم الدينية (باستثناء البدو)

المذاهب الدينية	سوريا [١] (١٩٣٨)	لبنان (١٩٤٢)
السنيون [٢]	١٬٧٢٧٬٤٠٢	٢٢٥٬٥٨٤
الشيعة	١١٬٥٤١	٢٠٠٬٦٩٨
العلويون	٢٧٤٬٤٨٦	—
الدروز	٧٩٬٤٢٨	٧١٬٧١١
الاسماعيلية	٢٤٬٣٩٠	—
الموارنة	١١٬٨٠٠	٣١٨و٢٠١
المِلْكيُّون	٤٢٬٤٢٧	٦١٬٩٥٦
اللاتينيون	٤٬٧٥٠	٣٬٠٠٢
الأرمن الكاثوليك	١٢٬١٣٧	٩٬٧٤٣
السوريون الكاثوليك	١٤٬١٨٢	٤٬٧٨٨
الكلدانيون	٣٬٧٥٩	١٬٢٧٤
الروم الأرثوذكس	١١٥٬١١٨	١٠٦٬٦٥٨
الأرمن (الجريجوريان)	٨٦٬٧٤٢	٥٨٬٠٠٧
السوريون الأرثوذكس	٣٢٬٨٩٢	٣٬٥٧٥
البروتستانت	٧٬٦٦٠	١٠٬١٥٢
اليزيديون	٢٬٠٦٣	—
اليهود	٢٦٬٢٥٠	٥٬٥٠٣ [٣]

(١) يدخل فى هذا سكان اللاذقية وجبل الدروز، ولا يعد فيه سكان سنجق الأسكندرونة.

(٢) يدخل فى هذا الأكراد والترك والتركمان والشراكسة إلى جانب العرب.

(٣) يراجع فى هذا صفحة ١٠٠ من كتاب:

Statistical Handbook of Middle Eastern Countries, (Published by Economic Research Institute, Jewish Agency for Palestine), Jerusalem 1944.

جدول رقم (٣) السكان المستقرون فى فلسطين حسب مذاهبهم الدينية (١)

السنة	الجملة	مسلمون	يهود	مسيحيون	مذاهب أخرى
تعداد ١٩٢٢	٦٤٩ر٠٤٨	٤٨٦ر١٧٧	٨٣ر٧٩٠	٧١ر٤٦٤	٧ر٦١٧
« ١٩٣١	٩٦٦ر٧٦١	٦٩٣ر١٤٧	١٧٤ر٦٠٦	٨٨ر٩٠٧	١٠ر١٠١
تقدير فى ١٩٤٠	١ر٤٦٠ر٩٢٣	٨٧٣ر٤٥٣	٤٥٦ر٠٩١	١١٨ر٩٦٦	١٢ر٤١٣
« « ١٩٤٣	١.٥٨٢.٨٣٣	٩٤٦ر٩٧٣	٤٩٢ر٩٨٠	١٢٩ر٤٦٦	١٣ر٤١٤

جدول رقم (٤) سكان العراق

حسب مجموعاتهم ومذاهبهم الدينية (٢)

الجماعات	سنيون	شيعة	مسيحيون	يهود	مذاهب أخرى	الجملة
العرب	٤٥٠ر٠٠٠	١ر٦٠٠ر٠٠٠	—	—	—	٢ر٠٥٠ر٠٠٠
الأكراد	٦٥٠ر٠٠٠	—	—	—	—	٦٥٠ر٠٠٠
مسيحيون	—	—	١٨٠ر٠٠٠	—	—	١٨٠ر٠٠٠
يهود	—	—	—	١٢٠ر٠٠٠	—	١٢٠ر٠٠٠
ايرانيون	—	٨٥ر٠٠٠	—	—	—	٨٥ر٠٠٠
ترك	٧٠ر٠٠٠	—	—	—	—	٧٠ر٠٠٠
يزيديون	—	—	—	—	٤٠ر٠٠٠	٤٠ر٠٠٠
جماعات أخرى	—	—	—	—	٢٠ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠
الجملة	١ر١٧٠ر٠٠٠	١ر٨٦٥ر٠٠٠	١٨٠ر٠٠٠	١٢٠ر٠٠٠	٦٠ر٠٠٠	٣ر٢١٥ر٠٠٠

(١) قدر عدد البدو فى تعداد ١٩٢٢ بـ ١٠٨ر١٣٤ ، وفى تعداد ١٩٣١ بـ ٦٦ر٥٥٣ .

(٢) على أساس تقديرات ماقبل الحرب الأخيرة .

جدول رقم (٥) : متوسطات أهم المقاييس والنسب الأنثروبومترية لمادرس من جماعات الأقطار العربية الأسيوية [أولا : سوريا ولبنان] (١)

المجموعة	عدد الحالات	القامة	طول الرأس	عرض الرأس	النسبة الرأسية	عرض الوجه	ارتفاع الوجه	النسبة الوجهية	ارتفاع الأنف	اتساع الأنف	النسبة الأنفية
أهل البقاع	١٤٩	١٦٥ر٤ مم	١٧٧ر٧ مم	١٥٠ر٦ مم	٨٤ر٩	١٣٥ر٢ مم	١٢٢ر٦ مم	٩٠ر٥	٥١ر٤ مم	٣٣ر٩ مم	٦٥ر٧
المتاولة	٣٠٢	« ١٦٦ر٩	« ١٧٦ر٠	« ١٥٢ر٨	٨٧ر٣	« ١٣٥ر٣	« ١٢١ر٣	٨٩ر٦	« ٥٢ر٥	« ٣٣ر٨	٦٤ر٧
العلويون	٣٠٩	« ١٦٦ر٥	« ١٧٨ر٧	« ١٤٨ر٥	٨٣ر٢	« ١٣٤ر٨	« ١٢٢ر١	٩٠ر٨	« ٥٣ر٩	« ٣٤ر٨	٦٥ر١
الدروز	١٨١	« ١٦٥ر٦	« ١٨١ر٠	« ١٥٦ر٠	٨٦ر٤	« ١٣٩ر٠	« ١٢٦ر٠	٩٠ر٤	« ٥٦ر٠	« ٣٥ر٠	٦٢ر٦
أهل حماه	١٧٥	« ١٦٣ر٩	« ١٨٤ر٩	« ١٤٣ر٧	٧٨ر٦	« ١٣٢ر٥	« ١٢١ر٥	٩١ر٦	« ٥٢ر٦	« ٣٥ر٥	٦٨ر٢
« ماردين	١٥٧	« ١٦٨ر١	« ١٨٤ر٥	« ١٤٧ر١	٧٩ر٩	« ١٣٤ر١	« ١٢٠ر٩	٩٠ر١	« ٥٢ر٨	« ٣٥ر٢	٦٧ر١
« حفر	٩٣	« ١٦٨ر٠	« ١٨٩ر٥	« ١٤٣ر٣	٧٥ر٨	« ١٣٣ر١	« ١٢٢ر٢	٩١ر٨	« ٥١ر٦	« ٣٥ر٤	٦٩ر٢
« حجانة	٢٩٨	« ١٦٤ر٣	« ١٨٤ر٣	« ١٤٢ر٥	٧٧ر٥	« ١٣٠ر٤	« ١١٩ر٦	٩١ر٧	« ٥٠ر٧	« ٣٣ر٥	٦٦ر٦
الموالى	١٧٦	« ١٧٠ر١	« ١٩٠ر٤	« ١٤٧ر١	٧٧ر٢	« ١٣٥ر٩	« ١٢٤ر٠	٩٢ر٣	« ٥٥ر٤	« ٣٦ر٨	٦٦ر٢
العقيدات	١٢٠	« ١٦٨ر٥	« ١٩١ر٣	« ١٤٦ر١	٧٦ر٣	« ١٣٤ر٥	« ١٢٣ر٣	٩١ر٩	« ٥٤ر٦	« ٣٦ر٢	٦٥ر٩
الرولة	٢٧٠	« ١٦١ر٨	« ١٩١ر٤	« ١٤٣ر٦	٧٥ر٠	« ١٢٩ر٨	« ١١٩ر٢	٩١ر٦	« ٥٥ر١	« ٣٥ر٠	٦٣ر٧
ثانياً : وسط العراق (٢)											
عرب من كش	٣٩٠	« ١٦٧ر٦	« ١٨٨ر٤	« ١٤١ر٧	٧٥ر٢	« ١٢٩ر٤	« ١١٩ر٨	٩٢ر٧	« ٥٨ر٣	« ٣٥ر٣	٦١ر١
جند عراقيون	٢٢٨	« ١٧٢ر٥	« ١٨٧ر٣	« ١٤٣ر٦	٧٦ر٦	« ١٣٣ر٨	« ١٢٠ر٩	٩٠ر٥	« ٥٦ر٨	« ٣٤ر٥	٦١ر١
بدو من بهيج	٣٨	« ١٦٨ر٢	« ١٩١ر٣	« ١٤٠ر٢	٧٣ر٣	« ١٢٨ر٤	« ١١٧ر٢	٩١ر٤	« ٦٠ر٤	« ٣٥ر١	٥٨ر٤

(١) يراجع في تفاصيل هذه الأرقام جداول الأستاذ (شانكلن) في مقالاته المختلفة عن الجماعات السورية واللبنانية التي أشير إليها ضمن مراجع هذا البحث .

(٢) « « « « « « « « « (هنرى فيلد) في كتابه عن عرب العراق الأوسط .

تابع جدول رقم (٥) : متوسطات أهم المقاييس والنسب الأنثروبومترية

المجموعة	عدد الحالات	القامة	طول الرأس	عرض الرأس	النسبة الرأسية	عرض الوجه	ارتفاع الوجه	النسبة الوجهية	ارتفاع الأنف	اتساع الأنف	النسبة الأنفية
					ثالثا :	الكويت(٣)					
أهل الكويت	٤٠	١٦٥ر٠ سم	—	—	٧٩ر٦	—	١٢٨ر٢ مم	٩٤ر٤	٥٦ر٠ مم	٣٦ر٠ مم	٦٤ر٧
					رابعا :	اليمن (٤)					
سكان الهضبة	٤٠٠	١٦٤ر٠ «	١٨٨ر٠ مم	١٤٣ر٠ مم	٧٦ر٠	١٣٢ر٠ مم	١٢١ر٠ «	٩٢ر٠	٥٦ر٠ «	٣٣ر٥ «	٦١ر٠
« الساحل	؟	١٦٠ر٠ «	١٧٧ر٠ «	—	٨٤ر٠	—	١١٨ر٠ «	—	—	—	٦٤ر٠
					خامسا :	حضرموت وعمان(٥)					
قبائل يافع	٥	١٦١ر٠ «	١٧٥ر٢ «	١٤٣ر٠ «	٨١ر٧	—	—	—	—	—	—
« مهره	٥	١٦٥ر١ «	١٦٨ر٨ «	١٤٦ر٢ «	٨٦ر٧	—	—	—	—	—	—
« قرا	٧	١٦٨ر٠ «	١٦٤ر٥ «	١٤٦ر٥ «	٨٩ر١	—	—	—	—	—	—
« الشحر	٩	١٦١ر٣ «	١٦٩ر٧ «	١٤٩ر٢ «	٨٨ر١	—	—	—	—	—	—
« الكثيري	٤	١٦٦ر٤ «	١٦٢ر٢ «	١٤٦ر٥ «	٩٠ر٣	—	—	—	—	—	—
العمانيون	٣	١٧٠ر٢ «	١٧٠ر٦ «	١٤٥ر٣ «	٨٥ر١	—	—	—	—	—	—

(٣) و (٤) يراجع كتاب الأستاذ (كون) عن أجناس أوروبا .

(٥) يراجع كتاب الأستاذ (برترام توماس) Arabia Felix .

جدول رقم (٦) : التوزيع المئوى لمجموعات الدم المختلفـــة
بين أهم ما درس من جماعات الأقطار العربية الأسيوية(١)

المجموعة	الباحث	عدد الحالات	النسبة المئوية في مجموعات الدم المختلفة				النسبة الدموية
			صفر	ا	ب	ا ب	
الأرمن	پار	٣٠٨٠	٢٨٫١٤	٤٦٫٢٠	١٢٫٦٣	١٣٫٠١	٢٫٣١
«	ألتونيان	٦٥٣	٢٧٫٠٠	٥٣٫٠٠	١٤٫٠٠	٦٫٠٠	٢٫٩٥
«	كوسوفتش	٣٨٠	٣٦٫٣٠	٤٠٫٣٠	١٦٫٦٠	٦٫٨٠	٢٫٠١
مسلمو سوريا	پار	١٧٧٧	٣٥٫٠٠	٣٦٫٥٧	١٩٫١٣	٩٫٢٨	١٫٦١
مسيحيو سوريا	«	٢٠٩١	٣٧٫٨٢	٤٢٫٣٧	١٢٫١٤	٧٫٦٥	٢٫٥٣
الموالى	شانكلن	٢١٣	٨٩٫١٩	٧٫٥٠	٣٫٢٨	—	
العقيدات	«	١٥٩	٧٤٫٨٤	١٦٫٩٧	٥٫٦٥	٢٫٥٢	
الرولة(معسكر ١)	«	٧٩	٩٤٫٩٤	٥٫٠٦	—	—	
« (« ٢)	«	٧٧	٨٧٫٠١	٩٫٠٩	٢٫٦٠	١٫٣٠	
« (« ٣)	«	٥٨	٨٢٫٧٦	١٢٫٠٧	٥٫١٧	—	
الدروز	پار	٢٢٩	٣٣٫١٨	٣٦٫٢٤	١٨٫٣٤	١٢٫٢٢	١٫٥٩
يهود (أشكينازيم)	يونوفتش	٣٢٠	٣٧٫١٨	٣٤٫٠٦	١٨٫١٢	١٠٫٦٢	١٫٥٥
« («)	فلش	؟	٣٣٫٤٠	٤٠٫٨٠	١٨٫٧٠	٧٫١٠	١٫٨٥
« (سيفارديم)	يونوفتش	١٥٨	٤١٫١٣	٢٨٫٤٨	٢٣٫٤١	٦٫٩٦	١٫١٦
« («)	فلش	؟	٣٨٫٨٠	٣٣٫٠٠	٢٣٫٢٠	٥٫٠٠	١٫٣٤
« سوريا	پار	١٨١	٢٨٫٧٢	٣٤٫٢٥	١٩٫٣٣	١٧٫٦٧	١٫٤٠
« حلب	ألتونيان	١٧٢	٣٨٫٠٠	٣٤٫٠٠	٢٠٫٠٠	٨٫٠٠	١٫٥٠
الأشوريون	پار	١٦١	٣٢٫٩١	٤١٫٦١	١٤٫٩٠	١٠٫٥٥	٢٫٠٥
العرب ؟	هرشفلد	٥٠٠	٤٣٫٦٠	٣٢٫٤٠	١٩٫٠٠	٥٫٠٠	١٫٥٠

(١) المراجع فى مجموعات الدم كثيرة فى اللغات الأجنبية ، وهنالك بعض كتابات باللغة العربيـة في هذا الموضوع منها مقالان طويلان يجد القارىء العربى فيهما مادة كثيرة هما :

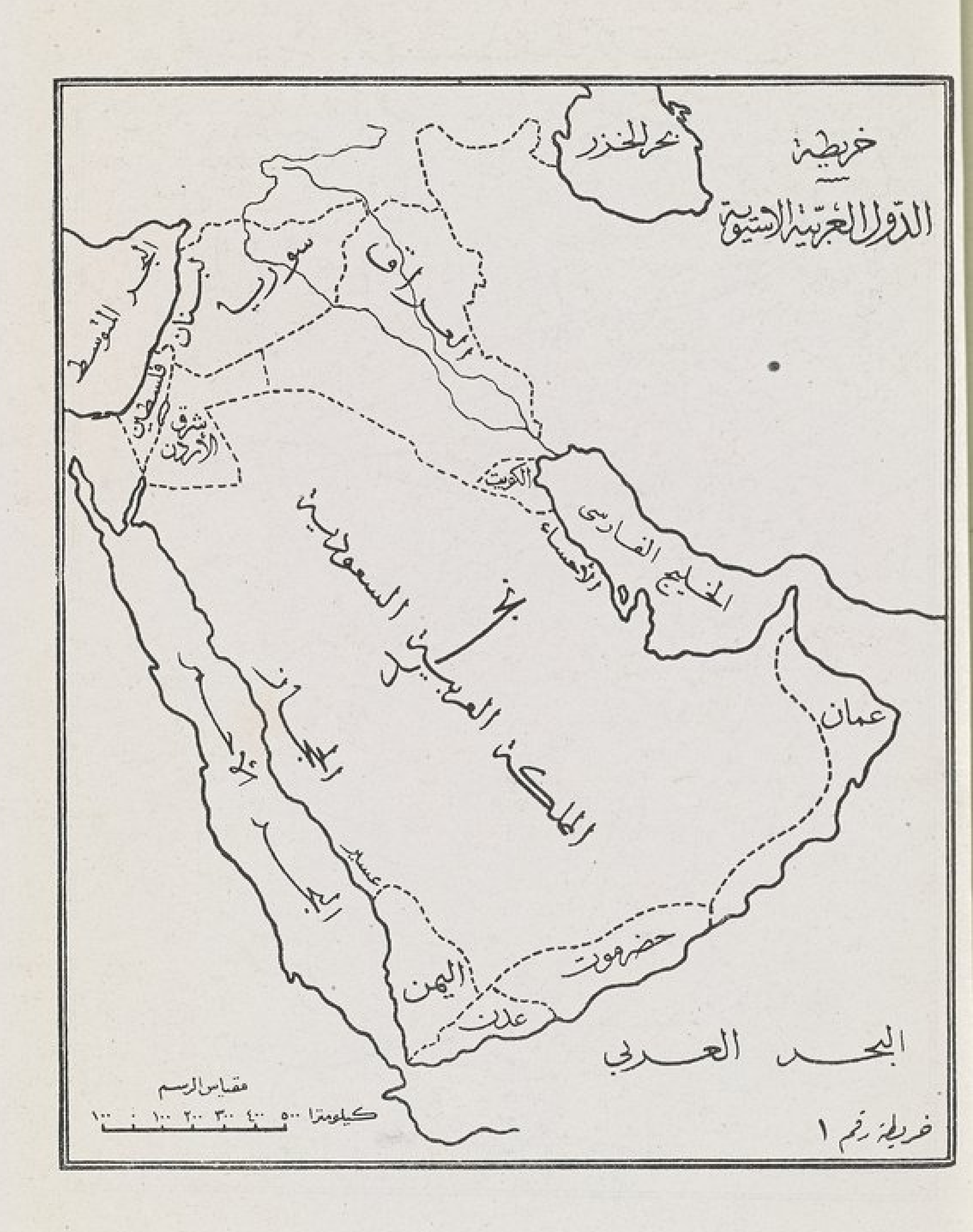
ا — بحث فى دراسة فصائل الدم الآدمى (للدكتور داود متى) ، مقالات نشرت بالأعداد ٢ و ٤ و ٦ و ٧ و ٩ بالمجلة الطبية المصرية السنة الحادية والعشرون (١٩٣٨) .

ب — أسرار الدماء (للدكتور على توفيق شوشه بك) فى الكتاب السنوى السابع للمجمع المصرى للثقافة العلمية (١٩٣٦) .

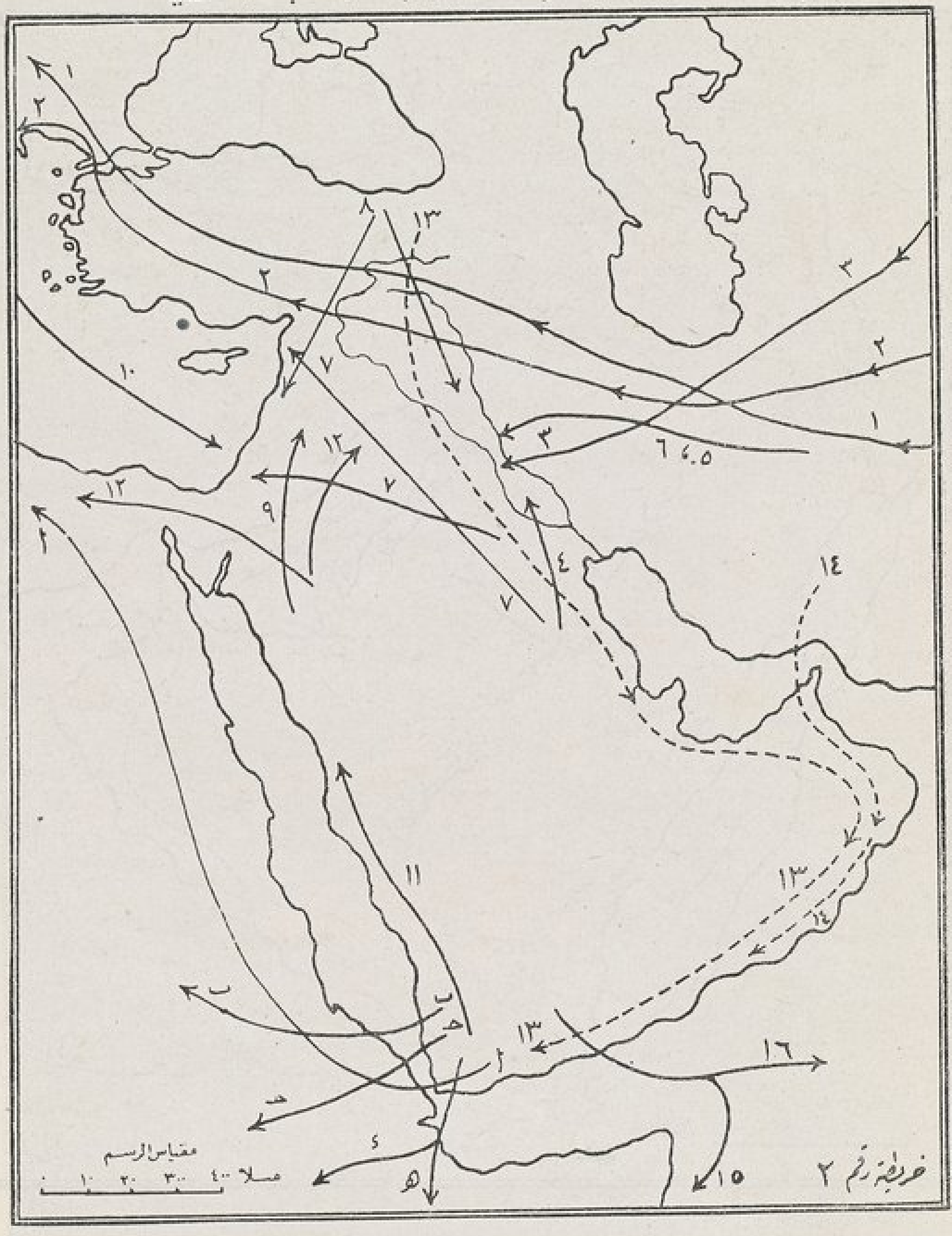
أما أهمية فصائل الدم فى الدراسات الجنسية للشعوب ، فإن القارىء يجد عرضاً وافيا لها فى الجزء الخاص بهذا فى كتابي عن أهل الشرقية (باللغة الانجليزية) :

"On the Validity and Significance of Blood Groups in Anthropological Research"

— Abbas M. Ammar = The People of Sharqiya: Their Racial History, Serology, Demography, and Conditions of Life, Cairo 1944.


خريطة
الدول العربية الاسيوية
بحر الخزر
البحر المتوسط
سوريا
لبنان
فلسطين
شرق الأردن
العراق
الكويت
الاحساء
الخليج الفارسي
نجد
المملكة العربية السعودية
عسير
عمان
حضرموت
اليمن
عدن
البحر العربي
مقياس الرسم
كيلومترا ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠ ١٠٠
خريطة رقم ١

الهجرات البشرية الرئيسية في جنوب غرب آسيا



الهجرات البشرية المبينة بالخريطة رقم ٢

١ - هجرات ألپية

٢ - أتراك (سلجوقيون وعثمانيون)

٣ - هجرات أورالية ألطية إلى شمال الخليج الفارسى

٤ - الساميون القدماء

٥ و ٦ - الميديون والآريون

٧ - الساميون

٨ - الحيثيون

٩ - الساميون (أراميون وغيرهم)

١٠ - الفلسطينيون

١١ - هجرات العرب الجنوبيين

١٢ - هجرات إسلامية

١٣ - هجرات أرمنية (محتملة)

١٤ - هجرات لسلالات عريضة الرءوس (محتملة)

١٥ - « إلى شرق إفريقية

١٦ - « إلى إقليم الملايو

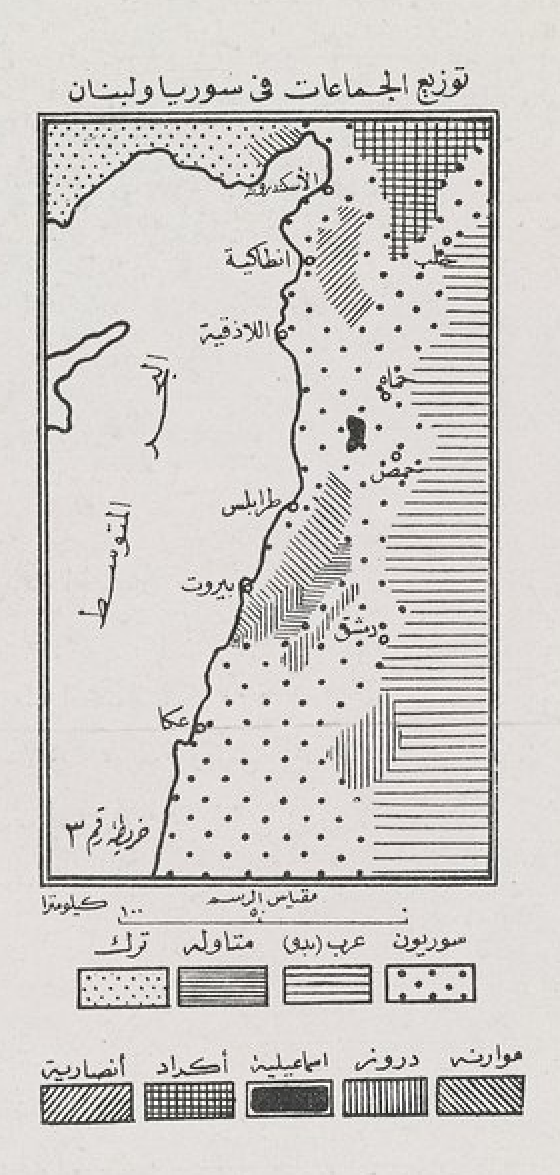
ا - طلائع الحاميين

ب - الساميون القدماء

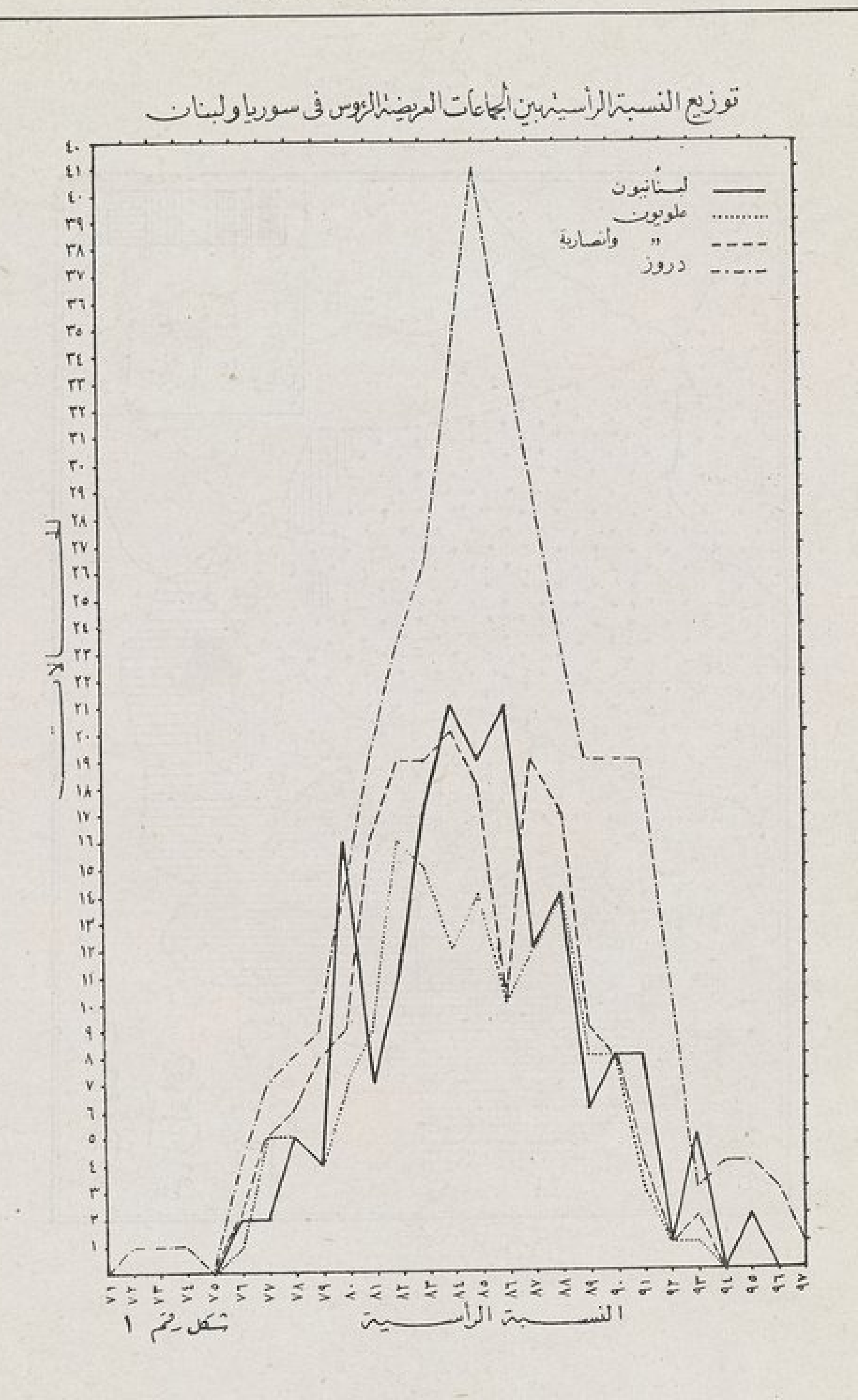
ح - الساميون الجنوبيون

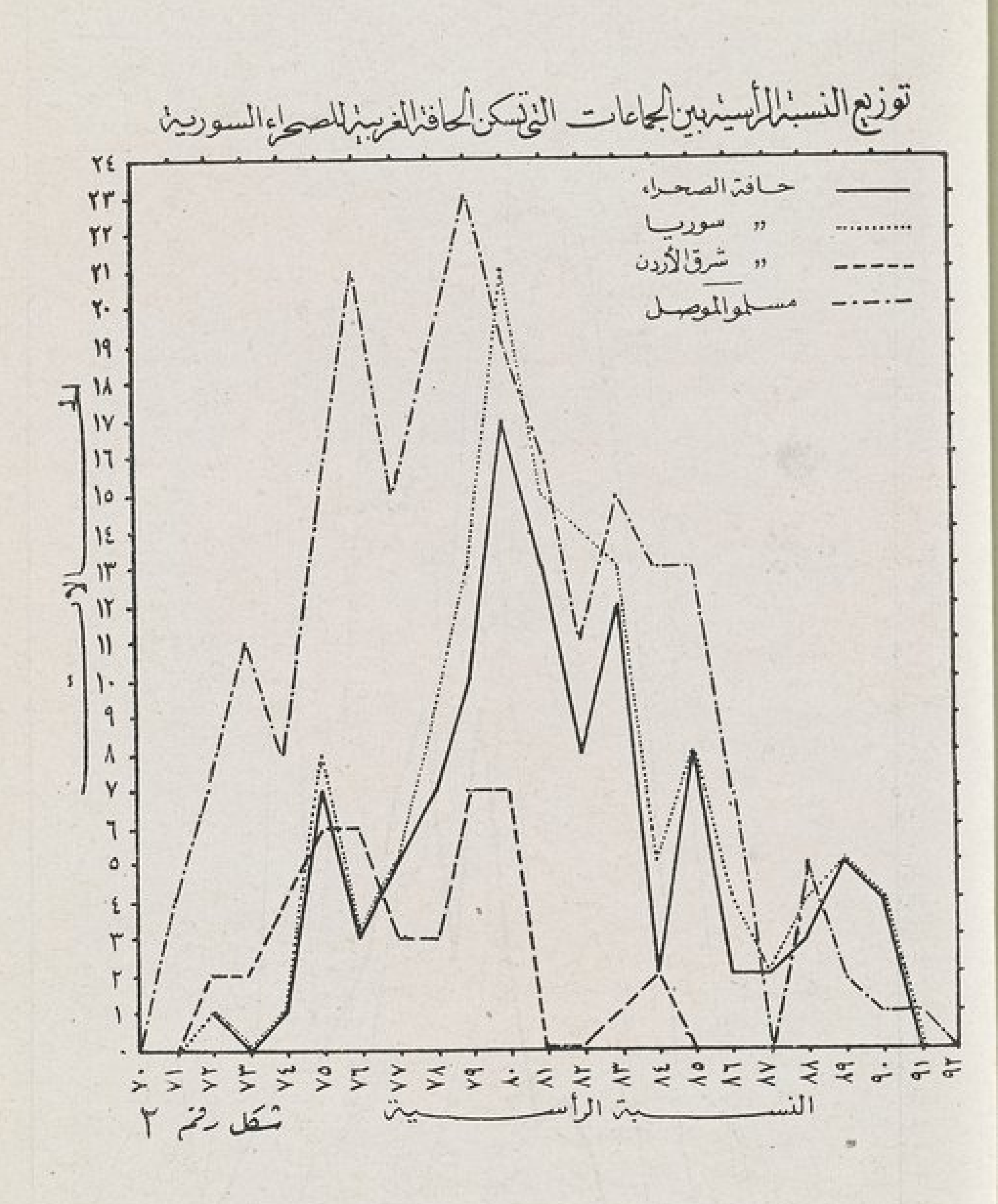
ء - الجلا

ه - الصوماليون


توزيع الجماعات فى سوريا ولبنان
الاسكندرونة
انطاكية
حلب
اللاذقية
حماه
حمص
البحر المتوسط
طرابلس
بيروت
دمشق
عكا
خريطة رقم ٣
مقياس الرسم
١٠٠ كيلومترا
سوريون
عرب (بدو)
متاولة
ترك
موارنة
دروز
اسماعيلية
أكراد
أنصارية

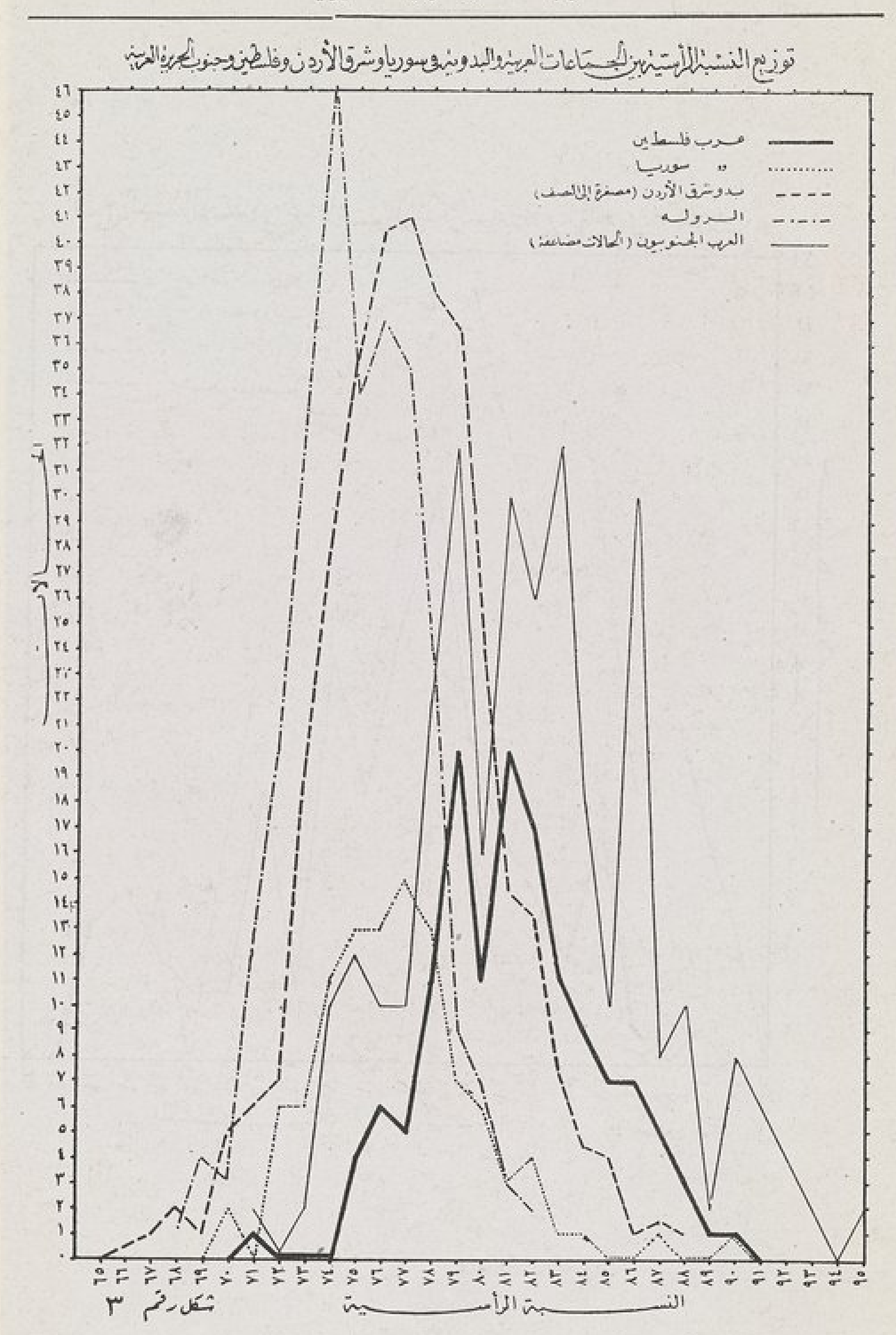

توزيع الجماعات
في
شمال العراق
مقياس الرسم
عرب
أكراد
يزيديون
مسيحيون
أتراك
أثوريون
خريطة رقم ٤


توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات العريضة الرؤوس في سوريا ولبنان
لبنانيون
علويون
" وأنصارية
دروز
النسبة الرأسية
شكل رقم ١

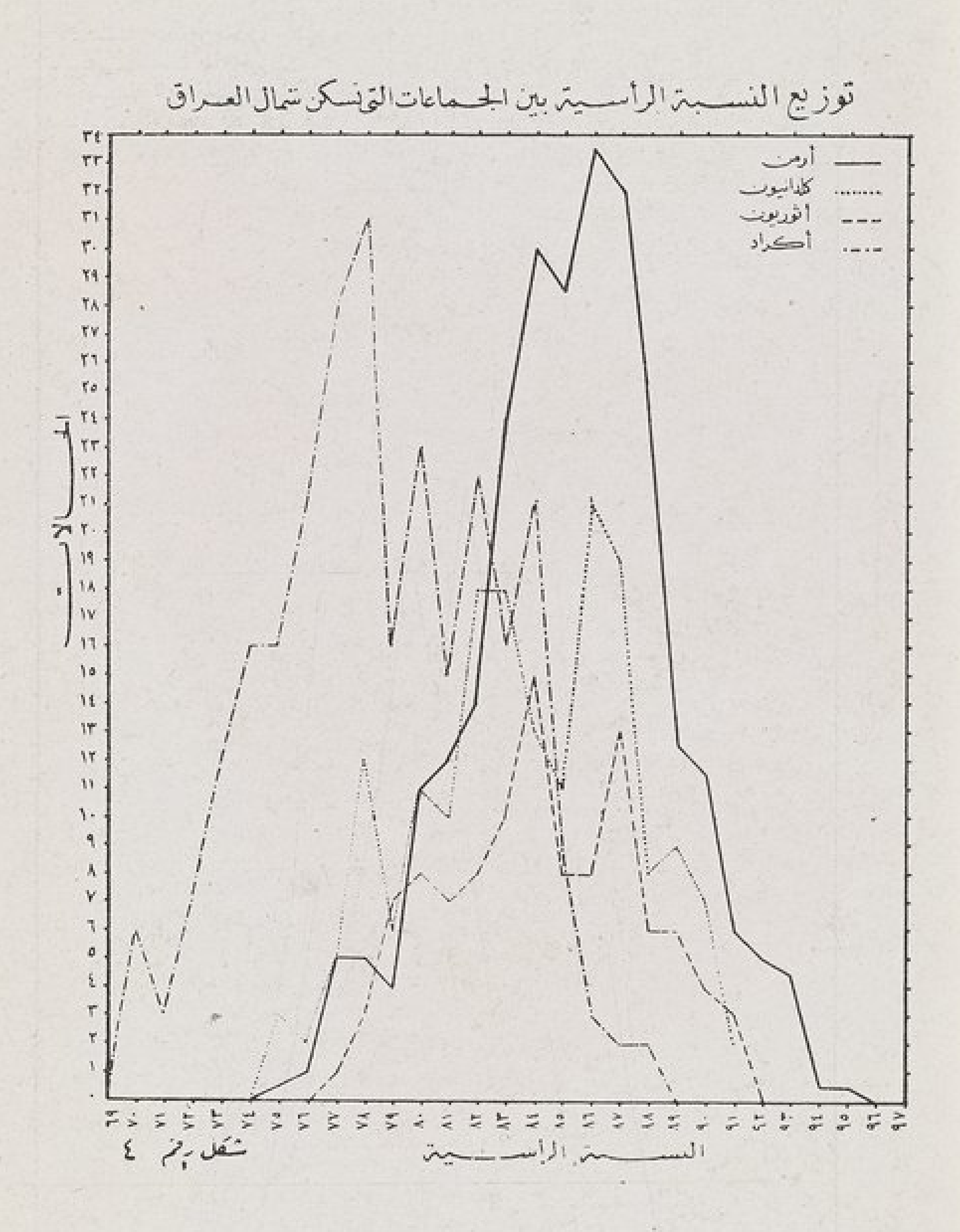


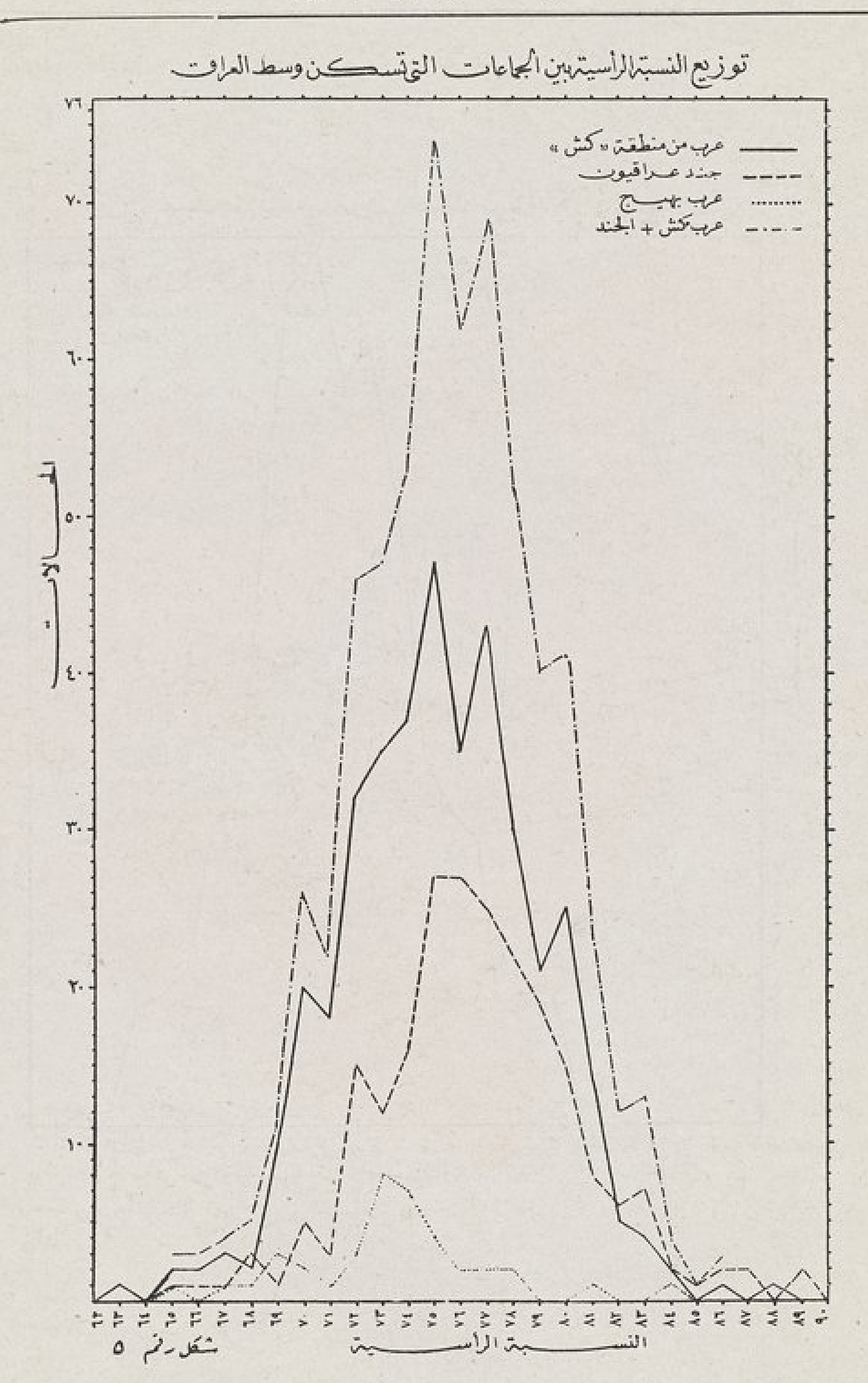
توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات التي تسكن الحافة الغربية للصحراء السورية
حافة الصحراء
" سوريا
" شرق الأردن
مسلمو الموصل
٢٤
٢٣
٢٢
٢١
٢٠
١٩
١٨
١٧
١٦
١٥
١٤
١٣
١٢
١١
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣
٢
١
٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢
النسبة الرأسية

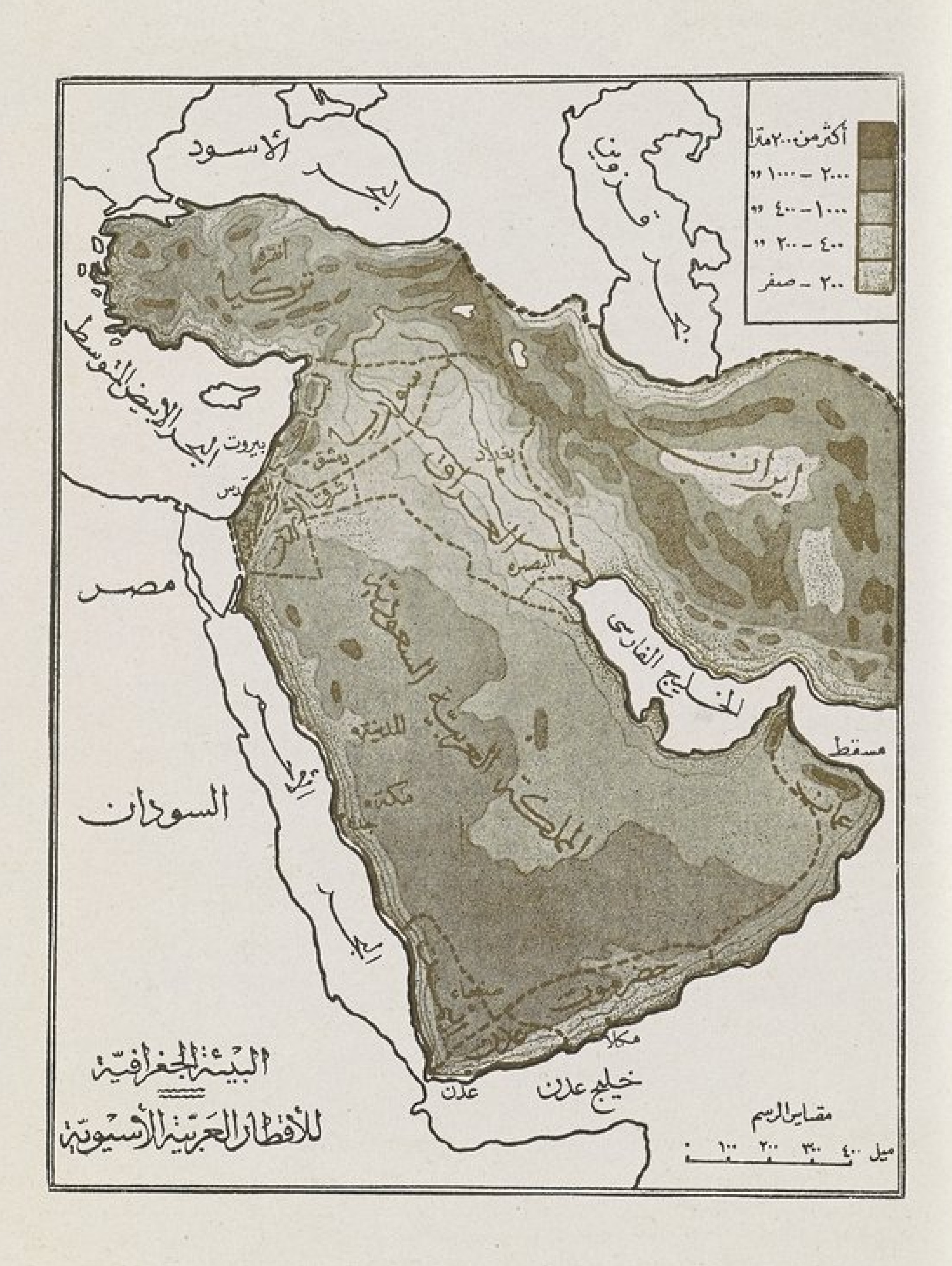
شكل رقم ٢


توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات العربية والبدوية في سوريا وشرق الأردن وفلسطين وجنوب الجزيرة العربية
عرب فلسطين
" سوريا
بدو شرق الأردن (مصغرة إلى النصف)
الرولة
العرب الجنوبيون (الحالات مضاعفة)
النسبة الرأسية

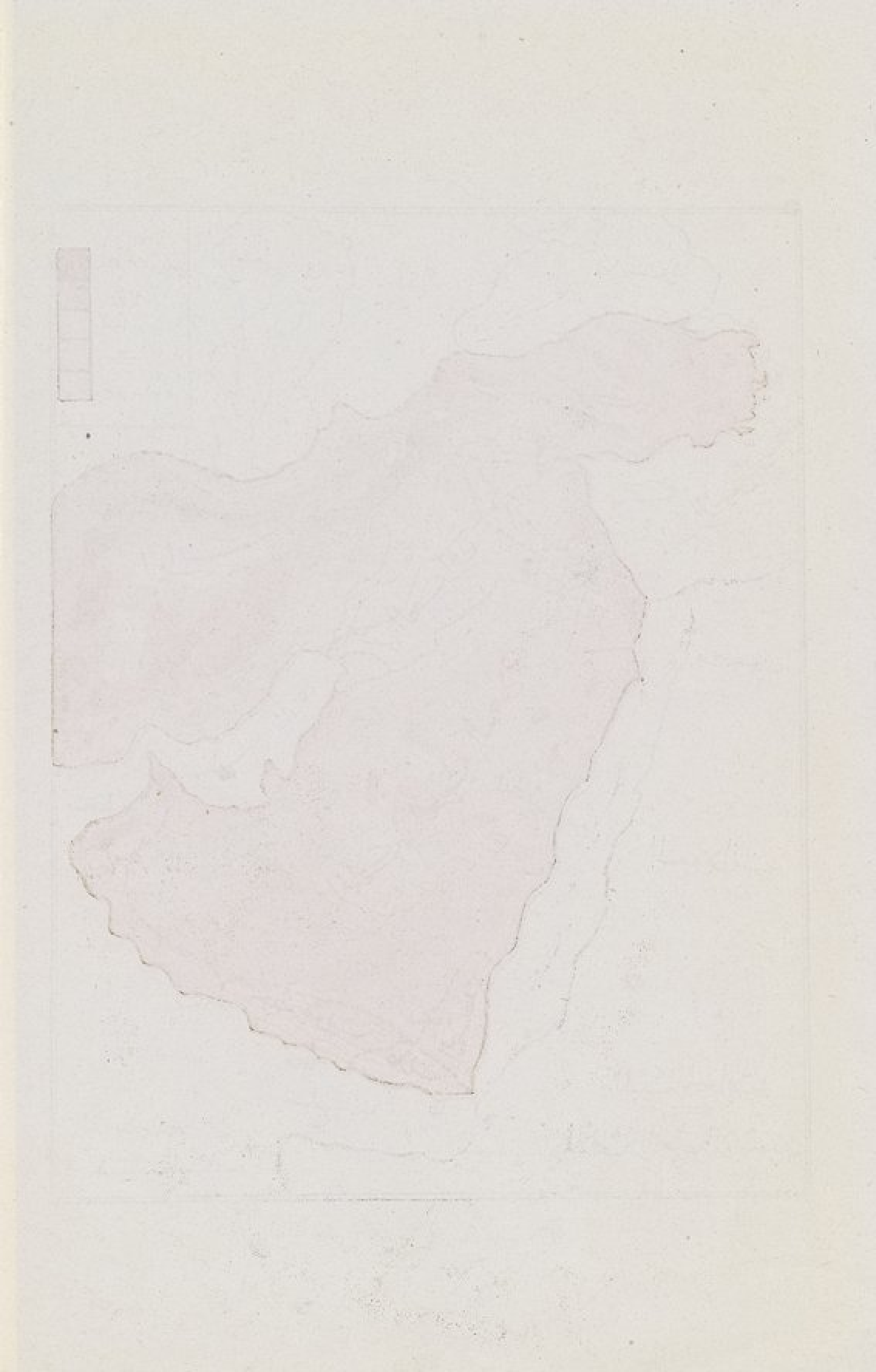
شكل رقم ٣


توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات التي تسكن شمال العراق
أرمن
كلدانيون
أثوريون
أكراد
النسبة الرأسية
شكل رقم ٤


توزيع النسبة الرأسية بين الجماعات التي تسكن وسط العراق
عرب من منطقة «كش»
جند عراقيون
عرب بهيج
عرب كش + الجند
٧٦
٧٠
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
النسبة الرأسية
شكل رقم ٥



أكثر من ٢٠٠٠ متر
٢٠٠٠ – ١٠٠٠ ,,
١٠٠٠ – ٤٠٠ ,,
٤٠٠ – ٢٠٠ ,,
٢٠٠ – صفر
بحر الأسود
بحر قزوين
تركيا
البحر الأبيض المتوسط
بيروت
دمشق
القدس
سوريا
بغداد
العراق
البصرة
إيران
الخليج الفارسي
مصر
المدينة
مكة
السودان
مسقط
عمان
حضرموت
مكلا
عدن
خليج عدن
البيئة الجغرافية
للأقطار العربية الأسيوية
مقياس الرسم
ميل ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠



الحياة الاقتصادية فى الاقطار العربية

لحضرة الاستاذ سامى السراج

سيداتى ، سادتى :

تفضل قسم الخدمة العامة فى هذه المؤسسة العلمية المباركة الخطوات والغدوات ، الريانة بجم المعارف وشتى الأعراف ، فخصنى بالدعوة إلى إلقاء بحث عن « اقتصاديات البلدان العربية » ظناً كريماً منه انى من مآهيل رجاله ، وحلق خبرائه ، فكان فى الواقع ظن تسامح وكرم . ولقد وددت أن أرد نفسي عن هذه المهمة لأخلى بين هذا المنبر و بين من يعتلونه من أفاضل راجحى الوزنة، وافرى المكنة ،كاملى الفطنة ، بحسن ألا يتخلل سمعهم الفريد باحث مثلى قصير باع كز متاع قليل إمتاع . لولا ان هنالك شرفا يغرى و يستو رى ،شرف الامتثال لما قضى به حسن ظن الداعين ،والمثول أمام جمع من أكرم السامعين، فرحت أهيىء بحثى عن بلاد باركت يد الرحمن ما بينها من وثاقة إخاء وأضفت عليها وفراً من القداسة والملاء ، بلاد أنبت الله من أرضها الطيبة أكبر مجموعة من الهداة المصطفين والأنبياء والمرسلين ، فما انفكت أمم الأرض قاطبة تنظر اليها باهتمام بالغ يشمل ألوان نهضتها وجوانب يقظتها ، ناهيكم بناحيتها الاقتصادية شاغلة العنوان الدال على ظواهر نشاطها، ومعالم أهليتها للحياة العامة، تلك الحياة التى تمو ر آفاقها اليوم بنوازع التزاحم والتنافس، والتقدم والاستباق ، وصولاً إلى الجوهر الفرد ، الذى هو مادة نشاط العصر ، وهو « الاقتصاد » .

وقد نكون على حق إذا نحن أرجعنا هذا الاهتمام البادى نحو اقتصاديات البلدان العربية الى ثلاث :

١ - موقع هذه البلاد الجغرافى بالنسبة لمسرى الاقتصاد العالمي المقبل .

٢ - أثر الترابط الاقتصادى فى تكوين مشخصاتها القومية .

٣ - ما تهيأ لها من وسائل انتعاش خلال نصيبها من حكم الذات .

لا جرم ، ان كل مدلول من هذه المدلولات الثلاثة يومىء الى نوع معين من الأهمية ، تتمتع به أمصارنا العربية فى دنيا الاقتصاد العام ، فبالنسبة لموقعهـا الجغرافى هى بلاد تترامى بين ثلاثة

بحور، وثلاث قارات من أكثر قارات الارض كثافة سكان . يفرض القانون الطبيعي أن تكون عوالم هـذه القارات على اتصال مستمر لمقايضة مافيهن من خامات متنوعة وإنتاجات متباينة تساوى بين الاحتياجات المتفاوتة فتؤدى مهمة الاستكفاء، وتعين على التواصل بين الانسـان والانسان . فبلادنا العربية ماتبرح تؤدى الى مدنيات العصور وحضارات الاجيال خدمات جلى فرضتها عليها الطبيعة إذ أقامت منها جسراً موصلا بين آسيا وأوروبا وافريقيا وأسبغت عليها قيمة جغرافية بالغة الأهمية سواء من وجهة الرقى التصاعدى للانسان أو من وجهة الاقتصاد الـكونى العام . هـذا بالاضافة الى ماتميزت به من هبات الاخراج والانتاج ومواهب التوليد والابتكار مطبوعة بالطابع الشرقى الذى ما يزال يعد من مظاهر الاتقان والاحسان .

فمن أبلغ ما ينهض برهاناً على أهمية الاقتصاديات العربية : تلك المدنيات الشـامخة التى أنشأها السبأيون،والمعينيون، والحميريون.فى اليمن،والبابليون، والآشوريون فى العراق،والفينيقيون فى الشام، والمصريون القدماء على ضفاف النيل، تلك المدنيات التى كانت أطول لداتها عهداً وأثبتها على الزمان خلداً، هل قامت إلا على تلك الخصائص والهبات ففاحت على الانسـانية عطراً وزهراً، وأفاءت على الشرق نتاجا وثمراً، مما يحلو لى ولكم أن نستنشقه من لمحات التاريخ فى تلخيص خاطف ملذ، يطالعكم بآيات بينات من مقومات مدنياتكم الخالدات .

ففى اليمن : قد وصل علماء العصر الحالى المولعون بكشف مكنون الاخبار، وحل رموز الآثار، الى كشف نحو خمسة آلاف نص يماني قديم هدتهم الى معرفة الشأو الذى بلغه اليمانيون فى مناحى السياسة والاقتصاد، والثقافة والعمران، والانشاء والبناء، وما أصابوا من براعة فى الهندسة والزخرفة والملاحة، وكشف مجاهل البحار، وفى تشييد الخزانات، الفخمة والسدود المانعة، حجباً للمياه فى مواقيت، وأطلاقاً لها فى مواقيت . تلك السدود التى أقاموها عند منتهيات الوديان فى كثرة كاثرة حتى لقد وصفها شاعر منهم فقال مزدهياً مباهياً :

وفى الربوة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سـداً ترسل الماء سائلا

وكان قوله هذا منصرفاً الى مكان واحد من أمكنة السـدود وكان أشهرها وأعظمها سد مأرب،أفاض على اليمن من روافد خيره وفواضل بره، ماجعل المؤرخين يسمونها باليمن السعيدة، واليمن الخضراء،وجعل الأهلين فى سعة رزق و رخاء، حال جاوزوها الى السرف فالترف فبالغوا فى اقتناء نفيس التحف، وثمين الاعلاق، وقدروى البحاثة « جيان » أن سفن اليمن كانت وحيدة

زمانها فى جوب أكناف المحيط الهندي ، وأطراف البحر الاحمر ، وقد استنبط اليمانيون الاتجاهات من الشمس والكواكب والافلاك . وذكر هذا البحاثة أن قائد أسطول اسكندر المقدوني عندما وجه الى اكتشاف بحر الهند ،وجد العرب قد سبقوه اليه ،ووجد مدناً بأسماء عربية وألفاظاً عربية على أفواه السكان . وقد أصاب اليمانيون نجاحا فى التعليم والتجارة والزراعة ، ونصيباً من الحذق كصناعة الجواشن والسيوف المشتهرة باليمانية ، وتماثيل البرونز ، وتحف العقيق والجوهر ، وزخرفة الخزف ودباغة الجلود ونسج البرود موشاة بالذهب ، وحظا وافراً من تعدين الكروم ، والفضة والذهب ، ومعادن اقتصادية شتى ، ثبت وجودها لخبراء اليوم ، فتقدمت شركات كثيرة طالبة استغلالها ، ولكن امام اليمن الحالى يأبى منح امتيازاتها لغريب مخافة أن تطفىء مادة الاستغلال نور الاستقلال ، فتسوء عقبى الدار ، ولابد من يوم تخرج فيه هذه الكنوز على أيد فنية عربية أو يد صديقة مؤتمنة ، فتطالع الاوساط العلمية بآثار حضارة زاخرة بالمعجبات .

وفى مصر : هل يغرب عن البال كيف أعان مركز مصر الجغرافى قدماء سكانه على انشاء حضارة من أبهر حضارات الكون ،جعلتهم يبزون أهل الدنيا فى تركيز مقومات المدنية من براعة فى فن العمارة، ومهارة فى أعمال التعدين، وتفوق فى اقامة الجسور والهياكل والمعابد والخزانات ، ومن نشاط فى الملاحات النهرية ، والشاطئية ، وما نشروه من أضواء مدنية ساطعة الاشراق ، خالدة على وجه الزمان .

وفى الشام : إذا انثنينا الى مدنيتها ، أرتنا ظواهر نيرة من نشاط منقطع النظير ، فهي لم تقف عند الذى قسم لها من رقى في هندسة المياه ،واختصاص بثروة الاشجار المثمرة ، وتعميم للغابات المورقة، وأن اليونانيين قد أخذوا عنهم فى القرن السادس قبل الميلاد زراعات الزيتون والنخيل والاعناب ،بل جاوزت هذا الأفق من النشاط الى نقل حضارة الشام الى العالم البعيد ، فأنشأت السفن الضخمة .وجاب أبناؤها حوض المتوسط دانيه وقاصيه .وشقوا عباب المحيط الاطلسي قريبه ونائيه ، فقال المؤرخ شارم ان من حق سوريا علي العالم أن ينظر اليها بلاداً مؤسسة للتجارة ، وأول من أنشأ سفن النقل عبر القارات المترامية وراء البحار . فامتاز السوريون بنزعة التجارة وحب الاغتراب ،وركوب متن المخاطر والاسفار ،رغم أن قطرهم وافر الخير أصيل الثروة مشهورة معادنه مكتظة بالغلال حواصله ،ريانة ببواعث السخاء أغواره ووهاده ،تتهادى ببواثق الشجر جباله وآكامه ،وتزدان بكثيف الغابات حزونه وهضابه ،وكل هذا من مصادر الثروة الاهلية ذات الشأن

أما العراق : فقد تجمع له من حضاراته ميراث ضخم استمدت عناصرها من مميزات تربته وما توافر فيها من قوة امراع واخصاب. فاذا ارتفعنا مع تاريخه صاعدين الى عهوده الأولى، قابلتنا أمجاد متراكمة، ومدنيات متوالدة، هى رموز لما كان عليه من رقى فكر، وإشعاع عقل، وإشراق معرفة، فمن أفق العراق انسرح الذهن البشرى للتفكير فى شأن الفرد، وشأن الجماعة، وما بين الشأنين من واجبات، فكان نتاجه شريعة حمورابى، واضعة القواعد الأولى لتهذيب المجتمع. ومن شاطىء دجلة انبعثت الآية الزاخرة بمعانى الثقافة والمعرفة تلك الآية القائلة « ان من يحذق الكتابة على الآجر يتألق تألق الشمس رأد الضحى ».

وكانت فى عهد السومريين بالعراق أول محاولة لحفظ القيود والسجلات على طريقة الرسم برأس القصبة فوق اللبن الطرى يترك للشمس حتى يجف فيصلب ليحفظ ما رسم عليه ككتاب مسطور. ثم كانت أول محاولة لدعوة القبائل الى السكنى قرب الحواضر إغراء لهم على استغلال خيرات الأرض.

أليس هو العراق الذى نزله للافادة من كنوزه وروافده أشتات الأمم كالسومريين، والأكاديين، والعموريين، والعيلاميين والبابليين، والآشوريين، والكلدانيين، والفرس، واليونان، والرومان، فكان مزدحم الأمم ومهبط الأقوام طلباً لخيراته، أليس هو العراق صاحب العهد الذهبي الذى ورف فيه سلطان العباسيين، فنما الدخل وازدهر الملك، حتى غدت سحابات الغيث لا تهطل فى مواطن ذلك الملك الرخي، إلا ليعود خراجها الى خزائن العراق.

هذا ولا يزال العراق يحتفظ بمجموعة نباتية ثمينة لأنواع وفصائل من الغلات، كانت جاءته من حضارات الأمم الماضية، فبادت تلك الأمم، وبقيت هذه النباتات حية على كر القرون، تستمد بقاءها من صلاح التربة، ومميزات الارض، وقد قال بعض المؤرخين « ان العراق حقيق أن يعد الوطن الأول لأهم حاصل غذائى للانسان، إذ كان مخزن الشرق الأوسط للغلات. ووصفه هيردوتس وصفاً مستفيضاً، ثم خشي أن يرمى بالغلو، فأكد أن خصب الارض بالعراق فوق كل غلو وإغراق. وقارن مؤرخون محدثون بين انتاجه ماضياً وإنتاجه تالياً، فذهبوا الى رجحانه فى العهود الاولى، إذ استغل ناس القديم كل قطعة أرض قابلة للزرع. واستعملوا لانماء المحصول ورعاية الخصوبة أساليب كفلت لهم الحصول على ثلاثة محاصيل فى السنة. وما تزال آثار الترع التى شقوها شاخصة حتى الآن تنطق بمقدرة فنية وبراعة فى هندسة الرى لم تشاهد

أوروبا مثلها إلا فى القرن السابع عشر للميلاد . وكان فى شرائعهم ان الأرض لا تعطى الا لقادر على استغلالها، مع معاقبته إذا أهمل حرثها، وإعفائه من أجر السنوات الثلاث الأولى وإجبار المالك على ألا يستوفى أجراً عن أرض يؤجرها لغرس النخيل الا بعد انقضاء أربع سنوات يتم فيها الغرس ويبدو الغراس .

وظل هذا الازدهار يسود العراق حتى قبيل الفتح الاسلامى، إذ فاض دجلة فيضاناً مدمراً جرف السدود والترع ومرافق الزراعة ، ثم أدركها عهد عمر بن الخطاب فأعاد المنشآت ، وعمر السدود ، فبلغت المساحة المزروعة فى زمنه ، مايبلغ مقدار ٣٦ مليون جريب أى ما يساوى ثلاثة ملايين فدان ، وبلغت الجباية عنها نحو مئة مليون درهم .

سيداتى ، سادتى :

من هـذا العرض الموجز لتاريخنا الاقتصادى ، تتبينون قيمة اقتصاديات هذا الشرق العربى ، ومدى الارتباط بين الماضي والحاضر ، ومسيرها معاً فى موكب المستقبل ، على أسس تتجدد بتجدد الأزمان والأحداث .

معالم الوحدة : فالواقع الذى لا مراء فيه ، ان الطبيعة نسجت من أجزاء هذا الشرق العربي « وحدة اقتصادية » كاملة الأوصاف والمزايا متحدة المقومات والمشخصات ذلك ان العوامل الجغرافية المؤثرة ، والهبات الاقليمية المتميزة ، وما بين هذه الأجزاء من إرث تاريخي ، ومشاركة اجتماعية ، ومشاكلة فى العادات ، والميول ، والأذواق ، والأزياء ، وما يتلو ذلك من اتصال الحد بالحد ، والأديم بالأديم ، وتنوع فى خصائص الارضين ، وتفاوت فى درجات الحرارة واختلاف فى قابلية الانبات من شأنه أن يشد روابط هذه الاقطار شداً محكما ، ويجعلهن حلقة اقتصادية مفرغة ، صنع الله الذى أتقن كل شيء .

فمزايا الأرضين ، ترينا كل قطر فى الشرق العربى يختص بميزات ينفرد بها عن أشقائه تفرداً يفرض المبادلة والمقايضة بين الأشقاء فرضاً ملزماً . فمصر مثلا ذات سهول منبسطة منضرة برى دائم ، يغدقه عليها نيل مبارك الروحات ، لا يكز فى اغداقه طوال فصول السنة ، وهي ذات شمس ساطعة الضوء ، بادية الاشراق ، تساعد على سرعة الادراك ، والقطاف ، مع كثرة الوفر والمحصول ، بينا بلاد الى جوارها ، تمتد نحو الجنوب والشرق ، ونعنى بها بلاد الشام فلسطينها وأردنها ولبنانها وسوريتها الداخلية ، بما فيها من غوطات ورساتيق ، واغوار ، ونجود ، وجبال مشمخرات ، وغابات

ملتفات هى أصقاع قليلة الدفء ،مكفهرة الشتاء ،مبرقعة السماء ،يوافيها الغيث بمقدار قد يكون فيه غناء ، وقد يكون منه عناء ، وهنا تظهر ثمرات زراعتها مبعثرة على المواصم مستأنية تارة ، ومتأخرة تارة، فى حين أن زراعات مساقط النيل تظهر رتيبة مبكرة ، و بينا العراق كذلك لاهب الشمس فى الجنوب، قاصرها فى الشمال، ينضج أجود تمور العالم ، وأطيب الغلات ،تنبجس من ينابيعه ملايين الاطنان من الذهب الاسود السائل فتتغنى ميزانية العراق بجلال رفده ،وجمال قده ،ذلك المعدن الزنجى ،الذى أصبح معشوق الدول ،لأنه المعدن الذى فى كثير من الدول لا يجدونه ، والسواد المحبب الذى فى أرضهم يفقدونه ، ألا وهو النفط سيد العالم اليوم .

ان ذاك التفاوت فى مواقيت الانتاج ،وذياك التنوع فى طبائع الفجاج ، يجعل كل بلد عربى مكملا لجاره ، ويخلق من الجارات جميعاً وحدة اقتصادية تكفل ما اشترطته التجارة ، من يسر فى الوقت ، وسرعة فى النقل، وقلة في الاكلاف ،وتلك دعائمها الأولى .

إذن لقد اصطلحت الطبيعة نفسها على تكوين هذه الوحدة ،ودعمتها بجماع مؤثرات المصلحة المشتركة ،عدا عوامل أخرى روحية ، وخلقية ،أحدثت مشابهة فى المستوى الفكرى ، والمستوى الذوقى ،عند جميع سكان الشرق العربى ،يفترق قليلا و يتحد كثيراً على أشد ماهو متحد فى الامم الكاملة التكوين .

وهل يفوتنا هنا أن نذكر فى معرض التدليل حقيقة قررها بعض علماء الأجناس ، فقد أكدوا وحدة الجنس بين أقوام غرب البحر الاحمر وأقوام شرقه ، فقالوا عن هذه الوحدة انها عريقة فى القدم ، تأصلت منذ تطور المناخ الجوى بين الحد الأقصى للرطوبة والحد الأقصي للجفاف .كما قرر سياق التاريخ أن الزحوف الى الشرق أسيوية كانت أم غربية ، قد اتفقت على اعتبار بلاد الشرق العربى وحدة . فاذا أغار مغير من الشرق فامتلك بلاد كندا والشام ،سرعان ما يهرع نحو وادى النيل يمتلك مرابعه ومغانيه ، ومرافقه وثغوره ، تكملة لفتحه الاقتصادى . وعلى النقيض إذا زحف زاحف من الغرب نحو مصر لايعد زحفه ناجحاً إلا حين ينشمر صوب الشام فالعراق يمتلكهما للقصد ذاته . كان هذا رأى العالم القديم وها هو ذا رأى العـالم الجديد يتبدى خلال هذه الحرب الدائرة ،فقد أرتنا خطة الدفاع عن مصر مبتدئاً من مراكش غرباً الى أقصى العراق شرقاً ، ومن الشاطىء الهندى جنوباً ،الى بلاد الاناضول شمالا . كما أرتنا مصلحة الجيوش اقتضاء انشاء إدارة موحدة لضمان الميرة ، والمئونة لسكان الشرق الاوسط والفيالق التى فيه على

قواعد التبادل بين أقطاره ، وعلى هدى الناموس الطبيعي الذى لا تتغير موجباته . وكل خطأ اقتصادى وقع فيه الشرق كان منشأه الخطأ السياسي فى فصل أشطاره ، وتبضيع أقطاره ، وتنويع أفكاره . وما علاجه إلا وحدة النظم الاقتصادية بين هذه الأصقاع ، وانها لأمنية توشك أن تتحقق فى ظل فاروقنا العظيم على وجه يبعث مرامى جده الكبير الذى اتجه بقلبه وسيفه الى تحقيق حلم الأجيال فاستلحق السودان و بلاد الجزيرة وانثنى نحو الشام ، فأقبلت منقادة الى جيش ابراهيم وهدفها هدفه ، من إقامة وحدة مندمجة فى أمة متمازجة يسودها نظام اقتصادى عام. وهاهو الحفيد الأعظم يعمل عمل جده الاكبر على هدى الحق والرشاد ، حيا الله الفاروق .

سيداتى ، وسادتى :

لقد آن لى الآن - بعد إلماعتى الى نصيب بلداننا العربية فى التعاون الاقتصادى الانسانى وخدمة الحضارات ، والوضع التكوينى الذى خلق منها وحدة هى تراث الماضي وثروة المستقبل - لقد آن لى أن أنتقل بكم الى بحث أوضاعها الاقتصادية الحاضرة فأقول : لم يكن للبلاد العربية حتى ختام الحرب الماضية وضع منفرد يمكن أن يتناوله الباحث ، فقد كانت هذه البلاد ولايات ومتصرفيات تابعة للدولة العثمانية مندمجة فى اقتصادها العام . وإذن لم تكن لها نظم اقتصادية خاصة تتكيف باشرافها على شئون نفسها كما هي الحال فى الأمم الأخرى . فكان الفرد جزءاً من آلة الدولة التي تسيطر على مجموع الأجزاء وتوجهها إلى غرض الدولة العام وهو حفظ سلطانها وتوطيد هيمنتها فيما ترى استبقائه أو استلحاقه من أوطان . وكان الفرد والحالة هذه بحاجة إلى أمان من الزمان ليستعمل فى صناعته أو تجارته أو مهنته مايستعمله الآمن المطمئن من نشاط وكد وتوسع وامتداد . فلما لم يجد من زمانه هذا الامان ، وكان جهاز الدولة متحركا فى دائرة الغزو والدفاع ، وتجييش الجيوش ودرء الفتن ، ظل الفرد قلقاً منهوب الطمأنينة مسلوب الاستقرار يدور فى محيط حركة الجهاز دوراناً آلياً لاتجدى فيه أعمال الفكر أو تحوير الطريقة أو تعديل الاسلوب . وبذلك حرم رجل الشرق العربي من الركنين الركينين لنشاط الصناعة والتجارة ، وهما اطمئنان العامل الى زمانه وحريته من دورانه ، كما حرم الشرق العربي ذاته من ذاتية دولية تعلى الحواجز فى طريق الوارد الأجنبي ، وتمنح الصادر الوطنى شتى التسهيلات والمعونات ، لتربو الثروة الاهلية وتزيد . ثم بدأ أن يكون للبلاد العربية شأن اقتصادى خاص منذ أن انفصلت عن الدولة التركية وأصبح لواردها وصادرها إحصاء تعرف أرقامه

وتحصى أيامه . ومهما يكن من أمر القيود التى فرضت على هذه البلاد ، وما قام بغية التحلل منها، من ثورات وقلاقل ،فالواقع ان الحال الاقتصادى أخذ سبيله الى التكون فالظهور مطبوعاً بطابع البلاد نفسها ، ولو لم يكن باشراف أهلها . وبذلك كان الاقتصاد طيلة ربع القرن الماضى متصلا بالسياسة ومنفصلا عنها بعض الشيء ،متأثرة بالتطور العالمى بعد الحرب المنصرمة ،سواء فى التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو فى حركة التصدير والاستيراد .

ولما كان العالم تلك الفترة فى شبه ثورة صناعية ، إذ انقلبت معامل الحرب الى معامل انتاج وإخراج ، دبت الحركة في أوصال الشرق العربى ، فكثر استيراد الآلات من الغرب، وطارت بعثات الطلاب اليه تتلقى علوم الميكانيكا وهندسة الآلات ، فما مضت سنوات حتى استعيض عن السواقى بالمكائن الرافعة للمياه ،وتحولت المغازل والمناسج اليدوية الى دوران بالكهرباء ،وحل الأسلوب الحار محل الأسلوب البارد فى صناعات الصابون ومعاصر الزيوت والمطابع ، وعم الرى الأراضى المرتفعة عن مسايل المياه ،فصعد الانتاج الزراعى والصناعي صعوداً لافتاً للأنظار . مثال ذلك ماقدمته لنا إحصائيات العراق لسنوات ما قبل هذه الحرب ،فقد قررت أن زيادة الغلات كانت سنة ١٩٣٥ من الشعير وحده بمعدل ٣٥٩ فى المئة عن مثلها سنة ١٩٣٣ ،ثم صعدت الزيادة مرة أخرى سنة ١٩٣٦ فكانت بمعدل ٢٧٣ ٪ عن مثيلتها فى السنة السابقة ، كما أشار الاحصاء إلى مضاعفة الوارد سنة بعد سنة وخصوصاً فى مواد الحديد والآلات والماكينات المجلوبة،مما جعل الصادر العراقي يرتفع عاماً فعاماً بنسبة عالية تومىء إلى توسع الانتاج . فقد كانت صادراته سنة ٣٣ / ٣٤ بقيمة ٢٨٧٤٠٠٠ دينار فارتفع فى السنة التالية الى ٤٣٠٠٠٠٠ ، وفى سنة ١٩٣٧ الى ٥٥٦٩٠٠٠ دينار . ومن الامثلة أن القطن لم تكن له فى العراق وسوريا زراعة تذكر فراحت تتسع فيهما معاً، فأصدر العراق منه لليابان سنة ١٩٣٧ ما قيمته ٢٠٤٠٠٠ دينار ، كما بلغت مساحته المزرعة فى سوريا ٣٢٨٤٠ هكتاراً آخذة فى الزيادة . وقد دخل القطن في عداد الموارد المستجدة فى كلا القطرين ، أما إحصاءات سوريا فقد أرتنا علامات أخرى على نشاط حركتها الاقتصادية انها أصدرت من الصوف وحده سنة ١٩٣٧ ماقيمته ثلاثة ملايين ليرة، يقابلها قيمة ١٢٤٦٠٠٠ ليرة لصادرها منه سنة ١٩٣١ ، وقد كان واردها سنة ١٩٣١ بقيمة خمسين مليون وصادرها بقيمة ١٢٠٠٠٠٠٠ ،أى بعجز قدره ٣٨ مليون ليرة سورية، فلما جاءت سنة ١٩٣٦ صعد صادرها الى قيمة ١٦ مليون وهبط الوارد الى ٢٨ مليون، وبذلك نزل العجز

الى ١٢ مليون بدل ٣٨ مليون، كما دعمت حالتها الاقتصادية بأعمال إنشائية طيبة الأثر، إذ قامت بتوسيع روافد المياه وتوليد قوى كهربائية، فتم ايصال المياه من مقاطع نهر العاصي الى ما يروى مساحة ١٥٦٠٠ فدان بين نهر الليطانى ما أصبح يروى ٩٠٠٠ فدان، وقد أوشك أن يتم توسيع مياه نهر بردى الذى يسقي بساتين دمشق وغوطها الكبرى ويقدم لها قوة كهربائية كافية للانارة وتيسير المحركات.

ومعظم الارقام يشير إلى تقدم الاقتصاد الوطنى فى أمصار الشرق العربى ونشاط حركتها التجارية، سواء ما كان بينها وبين البلاد الخارجية، أو ما كان بينها وبين البعض الآخر، ولا عبرة لصالح هذا القطر أو ذاك فى الميزان، بل العبرة فى أن التبادل بينهن يمضي فى مستوى عال

على أن مانالته البلدان العربية من نصيب فى تقدم الانتاجات الزراعية والصناعية وارتقاء الصادر لا يزال غير واف بالمرام، فقد لبث ميزانهن مع الخارج فى عجز ظاهر إذ يزيد واردهن منه عن صادرهن اليه بمعدل يتراوح بين ضعفين وثلاثة، وهن يغطين هذا العجز من إرساليات المهاجر المالية وما ينفقه السياح والمصطافون والجيوش، أو من الهبات الخيرية والتبشيرية، كما هى الحال بالنسبة للبنان.

ولعل من أهم أسباب العجز، شبكة الحواجز الجمركية التى أقيمت فى البلدان العربية فسدت مجارى تجارتهن وحالت دون عقد اتفاقات تجارية على أساس التسامح والمودة وتبادل المنفعة، عدا ما نشب فى جوانبهن من ثورات وفتن وعدم استقرار فى نوع الحكم وفى هيئات الحاكمين. كما حيل دون أن يتوالين سن اشتراطات لحماية صناعتهن وتجارتهن بما يجب من خفض رسوم وإعلاء رسوم وفرض ضرائب لا يعفى منها الأجنبي دون الوطنى، وبما يتعين إحداثه من النظم وفق الغرض الذى يجيء فى مصلحة البلاد. وليس أحد يستطيع تحديد هذا الغرض مثل أصحاب الشأن الأول.

أما فى الجزء الجنوبى من بلاد الشام، ونعنى به المنطقة المسماة بفلسطين، فقد نهضت تجارتها وصناعتها وزراعتها نهوضاً يسترعى الانتباه، فلقد بلغ ورق النقد المتداول فيها حتى سبتمبر سنة ١٩٣٥ نحو ٧ ملايين جنيه، أصاب الفرد منه ٦٣٠ قرشاً، يقابلها ١٢٦ قرشاً نصيب الفرد بمصر فى التاريخ ذاته؛ وبلغت واردات ميزانية تلك السنة ٥٠٠ ٥٦٠ ٥ جنيه بزيادة مليون جنيه عن سابقتها، فكان هذا عنوان زيادة الدخل ومضاعفة الانتعاش. لو لا أن سنة ١٩٣٧ جاءت

بنقص مليونين ، وسنة ١٩٣٨ بنقص ثلاثة ملايين من الجنيهات بسبب ماعرا البلاد من اضطراب وقلق أوجبا للمرافق العامة شللا ظاهراً . على أن ذاك الانتعاش لم يكن مرتكزاً على قواعد اقتصادية ثابتة ، بل على عنصرين طارئين هما رسوم الهجرة ورسوم بيوع الأراضى . وكلا السببين قد أدى إلى إيذاء الاقتصاد الوطنى ، إذ أفقد البلاد نعمة الطمأنينة ، وهى خميرة الأرض، باقحام قوم دخيل على قوم أصيل ، فكانت الفتن وكان انعدام الرخاء ذاته لأنه لم يكن مستنداً إلى أركان الاقتصاد .

أما فى المملكة السعودية فالوضع مختلف فى الشكل والجوهر . لقد كانت هذه البلاد تستورد من الخارج معظم احتياجاتها نظراً لفقر إنتاجها الزراعى والصناعى وضعف مادتها التجارية ، إذ ليس فيها غير صناعات يدوية بدائية من نوع ما يصنعه المرء لنفسه أو العائلة لسد احتياجها ، كصناعة الأبسطة والعباآت والاخراج والاعدال وما أشبه ، فلم تتميز تلك البلاد الى بضع سنين خلت إلا بشىء واحد هو انسياب النقد اليها من كافة فجاج الارض عن طريق الوافدين لأداء فريضة الحج . ويقدر ما يتركه كل حاج فى البلاد بمتوسط عشرين جنيهاً ، ومجموعه بمليونى جنيه . الا أن هذا النقد المنساب يعود ادراجه الى الخارج ثمناً لأقمشة مصنوعة، ومواد غذائية ، وأدوات معدنية وأدوية ، وسيارات ، وما الى ذلك ، .لكن هذه المملكة تميزت أخيراً عن شقيقاتها بمرفق من أعظم مرافق الاقتصاد على الاطلاق . وهو الاستقلال المطلق ، فقد أتاحت لها نعمة الاستقلال توسيع الزراعات المختلفة فى مناطق عسير والاحساء وخصوصاً منطقة الخرج ، حيث يجرى استصلاح مساحات تقدر بعشرة آلاف هكتار ، وتهيئة الادوات والماكينات اللازمة لريها مع جهد واسع لتحسين أنواع المحاصيل البسيطة ، كالرمان والبطيخ والموالح والخضروات ، وانتاج أنواع من القمح الجيد والشعير والاذرة والمشمش والاعناب ، كما أتاحت لها استغلال معدن التبر فى مهد الذهب ، وفجرت لها مادة النفط من عدة أماكن بواسطة من استقدمتهم من مهندسين وأخصائيين ، فأنشأت معامل لتكريره وتصفيته ، وقد ضاعف المسئولون نشاطهم فى حفر الآبار واستنباط البترول حتى غدت بئر واحدة من هذه الآبار تتدفق من النفط فى اليوم الواحد مايملأ نحو ٢٠ الف برميل أو يزيد . ولقد حدثنى كبير فى المملكة السعودية عن سعة وفرة هذا النفط المبارك ، فقال إن بئراً واحدة من الآبار المكتشفة تكفل من اخراج يوم واحد حاجة كل سكان المملكة من البترول ومشتقاته لعام

كامل . وقد أخذت الشركات الأميركية تهيء مشروعا من أضخم مشروعات العالم يرمى الى اقامة معامل ومصاف لتكرير نفط الاحساء والبحرين والكويت تستطيع بها تكرير ٢٥٠ الف برميل فى اليوم ثم انشاء أنابيب توصل البترول المصفى الى حوض البحر المتوسط عند ثغر الاسكندرية، فبارك الله استقلال هذه المملكة، وبارك استغلال معدنها السيال ، وحيا مليكها الرئبال

حضرات السيدات والسادة

لقد تجنبت ايراد الارقام وسرد الموازنات لجمودها وعسر هضمها عن طريق السماع ، الا ما أوجبه الاستشهاد لاثبات حقيقة ودعم برهان . ولان المامة كهذه لاتتسع لأكثر من الالماع الى المقاصد الآتية

١ - استذكار مجدنا الاقتصادى الذى طوته العصور والاحداث .

٢ - مايتركه فى نفوسنا وحى هذا الاستذكار من وجوب متابعة واستمرار .

٣ - ماتتمتع به بلاد الشرق العربى من قيمة اقتصادية عالمية .

٤ - حاجتنا الى الاستقلال نحمى به اقتصادياتنا فتمضى صعدا نحو الرقى .

٥ - حاجتنا الى التنظيم الاقتصادى بما يمكننا من مجاراة الاقتصاد العام .

سيداتى سادتى .

ان وطنية الشعوب صنفان . اعتقادى وعملى، فعمل بغير ايمان، لهو وبهتان وايمان بغير عمل موت ، على مهل . علينا أن نصل حلقة الماضى بحلقة الحاضر ليصح لنا القول .

هناك المجد معقود الاواخى وثم المجد مضروب القباب

مكانة المرأة فى البلاد العربية

لحضرة صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوى

سادتى ، سيداتى :

دعانى جناب الاستاذ الدكتور كليلاند، مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الامريكية، إلى إلقاء كلمة عن (مركز المرأة فى البلاد العربية) ، ولما كان شأن المرأة فى كل بلد يهمنى، ويطيب لى التحدث فيه ، شكرت لجنابه حسن ثقته بى واهتمامه بأمر المرأة العربية ومركزها الاجتماعى الذى كرست حياتى لخدمته - ولبيت شاكرة دعوته رغم ان حالتى الصحية ما كانت تسمح لى ببذل أى مجهود فكرى - فمعذرة إذا كنت لم أستطع وفاء الموضوع حقه، وإذا لم تساعدنى صحتى على إلقاء كلمتى بنفسى ، وانى إذ أنيب فى القائها حضرة الكاتبة الفاضلة ، والمحاضرة البليغة الاستاذة أمينة السعيد ، لواثقة من أنها ستربح بالقائها، أضعاف ما كانت تربحه بالقائى .

سادتى ، سيداتى :

إذا توخينا الصراحة فى تقرير الواقع حاولنا عبثاً تحديد مركز المرأة وإثبات مكانتها وحقوقها فى أى بلد وبالأخص فى عصرنا هذا - عصر القرن العشرين العجيب الملئ بالمفاجآت الخاطفة والتقلبات السريعة - هذا العصر الذى قام على تقديس المادة وإنكار حقوق الانسان وحرياته وتبجيل القوة الغاشمة - عصر الاختراعات الهائلة التى أنتجتها قوة العقل البشرى، وسخرها الرجل فى الهدم والتخريب بدل البناء والتعمير من أجل مطامع سياسية رخيصة ، وزج بالمرأة فى ميادين الحرب راغبة أو راغمة موهماً إياها انها بهذه المشاركة قد نالت كل شئ ، وفى الحقيقة انها لو خيرت بين حقوقها وبين سلام العالم لما ترددت فى التنازل عن تلك الحقوق لانقاذ البشرية من كوارث الحرب ومصائبها .

سادتى ، سيداتى :

يظن الناس ان المرأة الأوربية بخوضها غمار هذه الحرب بجانب الرجل قد نالت حقوقها السياسية كاملة، وفى الحقيقة انها سيقت الي هذا الميدان ، كما يساق الجندى، خضوعا للأحكام العسكرية، دون استشارتها فى إشعال نارها - وانى لأرى فى هذا نوعا جديداً من الاستعباد ، ويؤيد قولى

هذا تلك الضجة التي أثيرت في انجلترا وكندا في هذا الشأن ، وما نقرأه حالياً في بعض الصحف من أن المرأة الاوربية يجب ألا تظن انها بذلك قد وصلت الى كل شيء، بل عليها أن تعود الى بيتها وأولادها بعد أن تضع الحرب أوزارها - وهكذا أيها السادة شأن الرجل مع المرأة في كل العصور، يدنيها وقت الحاجة اليها، ثم بعد ذلك يقلب لها ظهر المجن - وسترون أنها رغم اشتراكها فى الحرب فعلياً ، لن يؤخذ رأيها في إعادة تنظيم العالم بعد انتهاء هذا النضال العالمي .

سادتى ، سيداتى :

ان عظمة كل أمة إذا كانت تنسب لـكفاءة رجالها ومقدرة أبنائهـا ، إلا أن مقياس تلك العظمة وينبوع تلك المقدرة هي المرأة، واضعة الحجر الأول فى أساس المجتمع ، فهي المنجبة ، والمربية ، والمحفزة لهمم الرجال ، هى الأم التى وضعت الجنة تحت أقدامها ، وقال فيها العلماء والمفكرون النزيهون أقوالهم الخالدة، مثل ديكنس فيلد الذى قال « المرأة هي روح الانسان التى تجعله يقول سـأكون عظيما ، ولـكن عطفها هو الذى يجعله غالباً عظيما » . أو كيشليه الذى قال « من القواعد المقررة ان عظماء الرجال يرثون عناصر عظمتهم من أمهاتهم » . ولما سئل أمرسون ما هى الحضارة ، قال « هى نفوذ النساء الطيبات » . ومع ذلك نرى معظم الرجال يسرهم إنكار هذا الفضل،وعدم الاعتراف للمرأة بحقوقها في المساواة ، لاعتقادهم بأن الرجل يفوقها عقلا وقوة . ولاثبات نظريتهم استندوا على أبحاث بعض العلماء والفلاسفة فى تكوينها وتركيبها . وكم سرهم أن تمخضت تلك الابحاث عن زيادة بعض جرامات فى وزن جسم الرجل ومخه وقلبه ، وبذلك قرروا ان المرأة أقل من الرجل قوة وإدراكا وعقلا . ونسوا ان هذه الفروق ناتجة عن حالتهـا العيشية ، وما تحملته فى القرون الماضية من الاجحاف الذى نزل بها والضغط على حرياتها ، وانها ظلت أجيالا متتابعه قابعة فى عقر دارها، محتقرة من الرجل، صاغرة لأوامره ونواهيه ، هذا فضلا عما حملتها به الطبيعة من أعباء مرهقة . هذا وفى حالة ما إذا خالف الواقع تحليلاتهم وتقاريرهم المغرضة،وظهر فى بعض النساء من القوة والتفوق والنبوغ مايضاهى قوة الرجل ونبوغه ، ويخالف أوصافهم لها،اعتبروا ميزاتها شذوذاً ، ونبوغها فجوراً ، ورموها بالخداع والغدر والخيانة . وبلغ بهم الظلم والجور الى قتل بعض النساء النابغات كجان دارك ، وأباتيا الفيلسوفة الشهيرة بجمالها وعلمها وأدبها وعفتها التى تبوأت أعلى مركز فى كراسى التدريس بجامعة الاسكندرية سنة ٣٧٠،فأثارت غيرة معاصريها من العلماء والفلاسفة ، فحرض بطريك الاسكندرية (سيريلا) الشعب عليها .

فانتظروها أمام بيتها ، وهى راجعة من الجامعة ، وانقضوا عليها ، ومزقوها إربًا ، وطافوا بلحمها فى المدينة ، ورموه للكلاب . لأنها تجرأت وقامت بدعاية لمبدأ على جديد .

سادتى ، سيداتي :

ظلت الأمم القديمة فى مختلف العصور تستعبد المرأة وتستبد بها ، وتبسط سلطان الرجل ووصايته عليها ، حتي كانت فى بعض البلاد تنتقل من سلطة والدها الى سلطة بعلها . وإذا مات زوجها، أصبحت تحت وصاية ابنها الأكبر، أو تحت تصرف أهل زوجها الواحد بعد الآخر طول حياتها . ففى بعض بلاد الشرق الاقصى كالهند واليابان والصين وغيرها ، كانت التقاليد تقضى بأن تتبع المرأة زوجها فى الحياة وفى الموت ، لأن شرائعهم وأديانهم كانت تقضى بأن تكون المرأة ظل الرجل وصداه ، كما كانت بعض قبائل العرب تئد بناتها ، وكانت معظم تلك البلاد فى حضارتها الأولى ، حتى البلاد الساحلية كاليونان والرومان ، تعتبر الزوجة من مقتنيات الرجل سيدها صاحب السلطة التامة عليها. تلك السلطة التي كانت تخوله حق بيعها، واستئجارها ، وإقامة من أراد من الأوصياء عليها بعد موته ، وإعطائهم حق التصرف فيها. فكانت الزوجة تورث مع مايرثه أهله من إرث ومتاع ، وبلغ استعباد الرجل لها أن كانت عند اليونانيين لا تستطيع الانتقال من غرفة الى غرفة فى منزلها إلا باذن من زوجها .

وفي عهد الامبراطور كاتن سنة ٣٠٥ كان الرومانيون يجعلون المرأة من المهد الى اللحد فى قبضة اليد (in mano) — إن مانو — حسب اصطلاحهم ، وقد قال كاتون الرومانى « نير المرأة لا يخلع » .

ولم تكن نساء أوروبا فى القرون الوسطى أوفر حظًا من نساء الشرق الأقصى وسواحل البحر الابيض المتوسط — ففى بدء ظهور المسيحية ، قام رجال الدين يبثون روح الكراهة ضد المرأة بقصد توجيه القلوب إلى الحياة الآخرة — فبلغ احتقار الرجل للمرأة عندهم أقصى الدرجات ، حتى إن الرجال فى مجمع باكون سنة ٥٣١، بحثوا فى هل للمرأة نفس، وهل تعتبر من جملة البشر — وفى عصر انتشار الرهبانية ، زاد تحمس الرجال ضد النساء لدرجة أنهم صاروا يطلقون عليهن من النعوت الظالمة أشدها وأقساها، ويعتبرون المرأة فاسدة بالفطرة ، ويحظرون عليها التعليم — واذا تعلمت القراءة منعوها من تعلم الكتابة — وكانوا يروضون المرأة على حياة الزهد والتقشف حتى ان نساء البيوتات الكبيرة كنّ لا يتميزن فى كيفية معيشتهن عن الراهبات،

وكن يمضين معظم أوقاتهن بين العبادة والأشغال اليدوية - ولو لا انشاء الأديرة التى فتحت للمرأة الأوروبية فى ذلك العهد باب التعليم والنشاط، لما غادرت المرأة عزلتها الأولى، حتى عصر الاقطاعيات الذى قام على تقديس القوة وتكريم الرجولة، وانحطت فيه حقوق المرأة فى تلك الاقطاعيات بتمييز الذكور عن الاناث - الا أن المدنية الاسلامية التى اكتسحت أوربا فى ذلك العصر - وألقت نور حضارتها عليها، فتحت أمام المرأة أبواب التحرر والتعليم، وأطلقتها من قيود العبودية الظالمة، وفى ذلك قال جوستاف لوبون (فمن العرب استعار سكان أوروبا مع تقاليد الفروسية احترام الجنس اللطيف،وعلى ذلك فليست المسيحية،كما هو معروف على وجه عام، هى التى رفعت المرأة من مقامها الوضيع الذى بقيت فيه حتى ذلك، إنما هو الاسلام الذى رفعها-فان أشراف الشطر الأول للقرون الوسطى ماكانوا يحفظون أقل احترام للجنس اللطيف، ويدلنا على ذلك إلقاء نظرة إلى تواريخنا القديمة) هذا ما قاله جوستاف لوبون.

سادتى سيداتى :

عاشت المرأة فى العصور الخالية، محرومة من حقوقها،مسلوبة الارادة والحرية، رغم ما ظهر من استعدادها ونبوغها وتفوقها على الرجال فى مختلف العصور - ظلم الرجل المرأة، وحرمها التمتع بنعيم الحرية والتعليم - وكون منها مخلوقاً على الصورة التى أرادها، ثم قام بعد ذلك يتهمها بالنقص، وبأنها مخلوق شرير من معدن غير معدنه،فظلمها مرتين، فكان من حقها مقاومة هذا الظلم، ودفعه عنها بكل الوسائل المشروعة - ولم يكن الرجل أبداً عادلا فى حكمه على المرأة، لا فى تقديره الحسن، ولا فى تقديره السيء - فتارة رفعها الى مصاف الآلهة ولقبها برسول السلام، وتصور فيها الملاك الحارس، ومصدر اليمن والبركة، وتارة رآها دون مستوى البشر، فخفضها الى الحضيض، وفى كلتا الحالتين لم يكن منصفاً لها، وما هذه المحاولات الا لأنه يأبى أن تستوى به، ولو تعقل لانصفها ووضعها بجانبه فى ذلك المكان الذى تصبو اليه، مادامت قد خلقت من ضلعه، ليستقر التوازن العالمى،وليقوم الانسان الاجتماعى،الفرد المكون من الرجل والمرأة،بأداء رسالته الانسانية السامية فى الوجود، وقد حض الله تعالى على انصافها بقوله (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة).

سادتى سيداتى :

أردت قبل الدخول فى الحديث عن مكانة المرأة فى البلاد العربية أن استعرض بايجاز

مركزها فى بعض البلاد الشرقية والغربية فى العالم وتقدير الرجل لها ومكانتها فى الشرائع والأديان ، ليظهر لنا جلياً الفرق بين المدنيات المختلفة فى العصور الخالية ، وبين مدنية العرب منذ العصور الأولى .

كان العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، بل منذ نيف وأربعة آلاف سنة ، أكثر الأمم احتراماً للمرأة ، واعترافاً بحقوقها ، وافتخاراً بشخصيتها لدرجة المباهاة بالانتساب اليها أمّاً كانت أو زوجة أو أختاً - إذ كانوا يقـدرون أدبها وشجاعتها واستبسالها ، اذا استثنينا بعض عصور التدهور والانحدار التى تأثر العرب بتقاليد الأمم المغيرة على بلادهم، وضغطها على حرياتهم، الامر الذى أدى إلى تطور أخلاقهم فى معاملة نسائهم مجاراة لهم أو حفظاً لكرامتهم .

وأول حضارة سجلها التاريخ ، هى تلك التى أقامها العمالقة الذين استوطنوا العراق ومصر وسـوريا مدة طويلة ، ووسـعوا مدنياتها وأنزلوا المرأة منهم منزلة عالية ، فكانت فى شرائعهم تتمتع بحق المساواة بالرجل ، وقد تجاوزه أحياناً - فكان للأم المنزلة الأولى فى الاجلال والاحـترام ، وكان للمرأة حق مزاولة كل أعمال الرجال ، وأرقى هؤلاء حضارة هم الحمورابيون ، نسبة الى حمورابى مؤسس هذه الدولة وأول واضع للتشريع فى التاريخ - وقد وضع شريعته على درجة من الرقى لم تصل اليها الأمم الحديثة فى عصرنا هذا - أعطت المرأة حقوقها كاملة مع بعض قيود - كما قيدت الرجل أكثر من غـيرها من الشرائع - فأجازت للرجل تعدد الزوجات على شريطة ألا يتزوج بثانيـة الا اذا كانت الاولى عقيما ، أو مريضة بمرض يمنعها من القيام بواجباتها الزوجية وذلك ما نطالب به اليوم - وأباحت للرجل الطلاق ، وقيدته بنفقة المطلقة ، ونفقة أولادها ، وحتمت عليه عدم تطليق الزوجة المريضة وألزمته باعالتها مدة حياتها - كما خولت المرأة أيضاً حق المطالبة بالطلاق ، على أن تعرض قضيتها على الكاهن ، أو القاضى ، فيفصل اما لها أو عليها ، ولم تقف هذه الشريعـة فى انصاف المرأة عند هذا الحد بل ساوتها بأولادها فى الميراث ، وحرمت زوجها ارثها إذا لم يكن لها منـه أولاد . وهذا أكثر مما نطالب به اليوم فى القرن العشرين ، وكذلك خولتها حق مزاولة الأعمال الحرة كالتجارة والزراعة وغيرها من الاعمال الاخرى ، وأنزلتها مكانة ممتازة فى الاسرة والهيئة الاجتماعية . وفى عهد الأقباط اعتلت النساء العروش وضربت النقود بأسمائهن مع أسماء الرجال ، واشتركن فى السيادة ، واشتهر من الملكات إذ ذاك (زنوبيا) من نساء تدمر ، التى كانت وصية على ابنها (وهب للات) فى أوائل

عهد المسيحية . وكانت أنموذجا للدهاء والنشاط والاقدام. أعلنت استقلالها عن الرومان ، وتولت قيادة الجند وسارت للفتح ونشرت أعلامها وسلطانها على مصر والشـام والعراق وآسيا الصغرى الى أنقرة . وغيرها من الملكات الشـهيرات (الزباء) ، والملـكة حبيبة ، وماوية التى خلفت زوجها على عرش سينا وما وراءها .

أما المرأة العربية فى الجاهلية فقد كانت على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة ، وعرفت بالـكرم ، حتى قيل ان حاتماً الطائى ورث كرمه المشهور عن والدته ، وقد كانت المرأة تشـارك الرجال فى الشجاعة ، ويتبعن أزواجهن إلى ميادين القتال، ليلقين الأناشيد الحماسية، وينقلن لهم الماء ،ويداوين الجرحى ،ويشتركن أحياناً فى القتال ،ويضربن من يحاول الهرب من المعركة . ومن بين من عرفن بالشجاعة (دختنوس) ابنة زرارة الدارمى ،و(آمنة) ابنة كليب و(كبشة) بنت معد يكرب الزبيدى وغيرهن . هذا وقد نبغ منهن فى الآداب كثيرات ، فبرزت فى الشعر آمنة بنت عنيبة وأميمة أم تابط شرا وتماضر الخنساء . ونبغت فى الطب طريفة كاهنة الميمن ، وزرقاء اليمامة . وكذلك نبغ كثير منهن فى نواحى الآداب والعلوم المختلفة . وكان العرب يعتزون بنسائهم النابغات ، ويباهون بانتسابهم اليهن ، على عكس ما كان يفعل غيرهم من الأوربيين مع النابغات من نسائهم .

المرأة العربية فى الاسلام

نزل الاسلام على الأمم العربية وكانت علي جانب كبير من المدنية، وجاء القرآن مصدقاً لما قبله من الأديان السماوية فأدخل فى شأن المرأة تعديلات وإصلاحات لا تحصى ،وبالأخص فى الحقوق الشرعية والاجتماعية،وسوى تقريباً بين المرأة والرجل فى الواجبات والحقوق الجوهرية، وان ميز الرجال على النسـاء درجة وسوى بينهما بقوله (ولهن مثل ما عليهن بالمعروف) ، وقد وضع حدوداً للمعـاملات والواجبات المتبادلة فى الزواج والطلاق وغيرها من العلائق الزوجية حافظاً للمرأة حقوقها الشرعية والمدنية ، وأملى على الأب والأخ والزوج والولد توصيات جمة ، ونهى عن وأد البنات فقال « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » وكذلك قوله تعـالى « لاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

وبخلاف الامم القديمة التى كانت تنكر على المرأة حقوقها ، ولاتسمح لها بالارث أو الشهادة، منح الاسلام المرأة حق التملك والتصرف والوراثة والشهادة ، ورفع من شأنها فى الحياة الزوجية، ومنع توارث النساء ،وحض على حسن معاشرة الزوجات والرفق بهن بقوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » كما حث على تكريم الوالدين ، وخاصة الأم اعزازاً لمكانتها ، وألغى فوضى الجاهلية فى الزواج فوضع لتعدد الزوجات حداً ،وأقام لجوازه شروطاً تكاد تجعله فى حكم المستحيل بقوله « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . ثم استدرك فى مكان آخر عدم إمكان العدالة فقال « ولن تستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . ومن هنا يتضح لنا انه مما يتفق وروح الشريعة السمحاء تنظيم جواز تعدد الزوجات مع مايناسب روح العصر ومقتضيات الحياة لدرء مايجلبه سوء استعمال هذا الحق من تعاسة للأسرة ، ومفاسد ومظالم للاولاد .

سادتي ، سيداتى :

جاء الاسلام مثبتاً لحقوق المرأة ، مكملا لما كان ينقصها ،رافعاً لمقامها ، فازدهر شأنها فى فجر الاسلام ، فتعلمت وعلمت وبايعت النبى صلى الله عليه وسلم وحاربت فى صفوفه، وهاجرت معه، وظلت مكانتها فى رفعة وازدياد عل مر العصور التالية . ففى العهد الأموى اشتهرت طبقة من النساء بالعلم والتقوى،وسرى التعليم الى الاماء فنبغن فى الادب والفنون، كالشعر والرواية والموسيقى، ونذكر من نساء البيوت المتأدبات سكينة بنت الحسين بن على التى قال فيها المستشرق الفرنسى بيرون « سيدة سيدات عصرها وأجملهن وأرقاهن صفات وأخلاقاً » وكان منزلها كعبة الأدباء والشعراء .

أما فى العصر العباسى فقد بلغ نضوج النهضة النسائية أوج الكمال ، وامتلأت القصور بالجاريات النابغات فى مختلف العلوم والفنون . وتسربت العدوى الأدبية ، الى بنات البيوتات الكبيرة ، فأصبحن عماد النهضة النسائية ، وأشهر هؤلاء السيدات العباسة بنت المهدى ، والسيدة نفيسة ، وظلت المرأة فى رقى مستمر حتى منتصف العصر الفاطمى ، حيث بدأت مكانتها تتضاءل رويداً رويداً أثر انحلال الدولة ، وما لبثت أن اختفت من المجتمع .

المرأة العربية فى العصر الحديث

سادتى ، سيداتى :

عمت فترة خمول الأمم واضمحلالها الاجتماعى كل بلاد الشرق العربى .وظلت المرأة فى تلك الوهدة حتى أشرق شعاع نهضتها الحديثة من مصر ،ولمع أول بريق لهذا الشعاع فى عهد محمد على باشا الكبير ، رأس الأسرة العلوية المجيدة الذى رأى ان ما من نهضة لأمة الا بنهضة نسائها ، فغرس أول نواة فى تعليم البنات بانشاء مدرسة لهن،كما افتتح مدرسة لتخريج القابلات ، حتى يقمن بكفاية المرأة فى هذه الناحية.وفى عهد اسماعيل العظيم أنشأت زوجته الصغرى ،حشم آنت هانم، مدرسة للبنات ، ولما ازداد الاقبال عليها ، أتبعتها بثانية ثم ثالثة ، وظلت خطوات المرأة فى ميدان العلم تتقدم على مهل ،حتى دوت صرخة قاسم أمين ،وتمخضت دعوته عن بداية نهضة نسائية طيبة فى مصر ، وعلى مرور الزمن ،و بفضل اشتراك المرأة فى الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ اشتراكا فعلياً، و بفضل جهود الاتحاد النسائى والدعاية التى قام بها منذ سسنة ١٩٢٣ بمصر والخارج ،اكتسبت المرأة المصرية حق المساواة بالرجل فى التعليم الثانوى والجامعى . وأقبلت الفتيات المصريات على مناهل العلم والثقافة بتعطش وشغف ، وأحرزن نجاحا باهراً فى مختلف العلوم والفنون ، وكن فى طليعة الأوائل فى الامتحانات العامة ابتدائية وثانوية وعالية . وفى سنوات قليلة تضاعف عدد الطالبات فى كليات الجامعة حتى بلغن خمسمائة طالبة من مجموع الطلبة الجامعيين ،منهن ٢٩٠ فى كلية الآداب ،و٩٠ في العلوم و ٣٠ في الحقوق و ١٠ فى التجارة ، وما هى الا سنوات قليلة حتى شغلن في المجتمع مناصب هامة ،ومارسن مهنة الطب والتعليم والمحاماة والطيران وغيرها من المهن والاعمال الحكومية والحرة فى نجاح مستمر ،و بذلك أعدن إلى المرأة العربية قسطا وافراً من مكانتها الاجتماعية القديمة ،وسرت روح هذه النهضة المباركة الى البلاد العربية الشقيقة التى أنجبت كثيراً من شهيرات النساء فى الادب والعلم والخطابة فى عصور حضارتها ، ووجدت هذه الروح فى تلك البلاد مرتعاً خصباً لتنمو فيه، ولا عجب فقد كانت من القدم مهد الثقافة والعرفان، ومنجبة لرجال العلم والادب الذين كانوا من أول الغارسين للعلم في بلادنا . وهنا لا يسعنى الا الاشادة بفضل ما قامت به مدارس الراهبات ،وما بذلته الكليات الامريكية من جهود فى تعليم بناتنا منذ النهضة التعليمية وقبلها ، وأخص بالذكر والثناء قسم الخدمة العامة للجامعة الامريكية الذى لا يألو جهداً في نشر الثقافة وخدمة العلم وأهله فى بلادنا العربية .

سادتى سيداتى :

أصبحت المرأة فى مصر والبلاد الشقيقة اليوم تشارك الرجل فى معظم وجوه الاصلاح، ماديا وعلميا واقتصاديا، تساعده فى الحقل، وفى المصانع وفى التجارة، وفى الشئون الاجتماعية إذ فتحت لها أبواب التعليم على مصراعيها فى المدارس الاولية والابتدائية والثانوية والجامعية، تتعلم وتعلم فيها وحتى فى الطيران كافتحت لها أبواب العمل فى الطب، والمحاماة، والتجارة، والمصارف، والسينما، والتمثيل، والرقابة، والصحافة، والمهن الادارية، كالتفتيش، وبوليس الآداب، والمعامل الصناعية، وعما قريب ستفتح كلية الهندسة والزراعة أبوابها للطالبات. لم يبق إذن فى مجال حياتنا الحديثة شيء لم تطرقه المرأة فيجب إذن أن تتساوي بالرجل فى الحقوق السياسية ليمكنها أن تضم صوتها إلى صوته وتعاونه فى جميع الاصلاحات التى يقوم بها فى مختلف مراحل الحياة وأن تشترك فى سن القوانين التى تنظم مرافق الحياة المشتركة بين الرجل والمرأة كما شاركته المواقف الوطنية الخطيرة فى مصر وفلسطين ولبنان وسوريا، وعرضن أنفسهن للسجن والتنكيل والاعتقال والموت. وأبدين من الشجاعة، والتضحية، وإنكار الذات ما شرف المرأة العربية.

سادتى سيداتى.. ولو أن المرأة العربية قد استعادت بعض حقوقها الشرعية والمدنية، إلا أنه ما زال ينقصها الكثير الذى لو منحته لاستعادت مكانتها أحسن مما كانت عليه فى العصور العربية الزاهرة، ومن أجل الحصول على بقية حقوقها المهضومة، عقد نساء الشرق العربى فى شهر ديسمبر الماضى بالقاهرة، مؤتمراً نسائياً عربياً، اشترك فيه أكثر من مائة وخمسين سيدة من الجمعيات النسائية فى مصر والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان وشرق الأردن، تردد ذكره فى العالم من أوروبا إلى الهند إلي أمريكا — وقد نظر ذلك المؤتمر الذى أعارته الدول الأجنبية والعروبة جانباً عظيما من العناية والاهتمام، فى قضيتين عادلتين، هما قضية المرأة، وقضية فلسطين — وهما قضيتان وثيقتا الارتباط وعلى نجاحهما يتوقف استكمال النهضة الوطنية واضطلاع المرأة العربية بواجباتها كاملة نحو المجتمع، بما يتناسب ومقتضيات العصر الحديث ولقد توخينا فى قراراتنا منتهى الحكمة والتبصر حتي نصل بسهولة الى حل هاتين القضيتين، ولعلنا نجد من رجالنا المفكرين آذاناً صاغية لطلباتنا إنصافاً لنا ولهم، حتى تستطيع المرأة أن تقوم بعبئها الوطنى الشاق فى هذه الظروف، التي إن طالت أو قصرت، لا شك ستتمخض عن أحداث ومفاجآت، يحسن بالرجل ألا يتحمل منفرداً عبء المسئولية فيها، لأن نتائج مثل هذه المسئوليات لن تقع

عليه وحده ، بل تقع أيضاً على المرأة التى أصبحت تشاطره كل شىء ، وعلى أولادهما أبناء الأجيال القادمة .

أما القضية الأولى ، وهى قضية المرأة ، فهى تتلخص فى ادخال بعض تعديلات من أجل تنظيم الزواج والطلاق والنفقة والحضانة بما يتناسب وروح الشريعة الاسلامية ومقتضيات العصر الحديث ، فلقد طالبنا بسن تشريع يلزم كلا الزوجين الخضوع لكشف طبى رسمى يثبت براءتهما من كل مرض تناسلى أو وراثى قبل الترخيص لهما بالزواج ، وتقييد تعدد الزوجات إلا باذن من القاضى فى حالة السقم أو المرض غير القابل للشفاء ، المساواة بين الرجل والمرأة فى أحكام قانون العقوبات الذى خص المرأة فقط بالعقاب فى جريمة الزنا . وتقييد حق الطلاق بما لا يجعله أداة اضرار بالمرأة ، وبما لا يتعارض مع أصول الشرائع فى حالة الطلاق أو الفرقة . وأن تعوض المطلقة عما يصيبها من ضرر بسبب إساءة الرجل استعمال حقه فى الطلاق ، ورفع النفقة القابلة للحجز فى مرتب الزوج الموظف الى الحد الذى يتسع للانفاق على زوجه وأولاده ، وجعل الحضانة للأم الى سن المراهقة فى الجنسين ما دامت أهلا لها ، وبعد حد المراهقة تكون الحضانة للأصلح من الوالدين حسبما يراه القضاء لمصلحة الطفل ، والحد من سلطة الولى ،ابا كان أوجدا ، بما يجعل هذه السلطة مماثلة لسلطة الوصى .

أما فى الحقوق السياسية فقد قرر المؤتمر مطالبة الحكومات بالعمل على المساواة تدريجياً بين المرأة والرجل فى الحقوق السياسية ، وعلى الأخص حق المرأة فى أن تنتخب وتنتخب ، والى أن تتهيأ للحكومات فرصة تحقيق هذه المساواة كاملة فى جميع الهيئات التشريعية والنيابية ، أن تبدأ هذه بتقرير هذه المساواة فى المجالس الحسبية والاقليمية وبالتعيين فى مجلس الشيوخ وفى الوظائف التى يشغلها الرجل المتساوى معها فى الشهادات والمؤهلات .

ولا أظن المرأة بطلبها هذا تسعى الى منحة ، فلقد أعطاها الاسلام حق البيعة، وبوأها منصب الافتاء ، فمن منحها الخالق حق بيعة النبى لا يجوز أن يسلبها المخلوق حق انتخاب نائب عن دائرة أو حىّ ، فى الوقت الذى يتمتع فيه بهذا الحق رجل قد يكون دونها ثقافة وخبرة

وفى حماية الاخلاق طالبنا بالغاء البغاء المرخص به فى جميع الاقطار العربية الغاء عاجلا ، وعدم الترخيص للفتيات بالاشتغال فى الحانات .

ومن مطالبنا بخصوص التعليم ، تعميم التعليم الاجبارى لمحو الأمية ، ثم العمل على ان تمهد الى

السـيدات بتعليم الناشئة بنين و بنات فى الطفولة ومرحلة التعليم الابتدائى ايضا ، وان يجمع بين الجنسين فى هذه السن وهاتين المرحلتين .

أما قضية فلسطين ،فقد قرر المؤتمر تأييد حق العرب فى أن فلسطين دولة مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، حكما نيابياً تمثل فيه الاكثرية العربية - ثانيا -وقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين وقفاً تاماً - ثالثاً -مطالبة الشعوب العربية أفراداً وجماعات، بالمساهمة المادية والمعنوية فى تأييد قضية فلسطين وتشكيل لجنة عامة تمثل جميع البـلاد العربية لوضع القواعد التى تراعى فى تحقيق هذا الغرض ، على أن يكون لهذه اللجنة فرع يمثلها فى كل بلد عربى - رابعاً - نشر الدعوة فى جميع البلاد العربية للدفاع عن حقوق العرب فى فلسطين ، وتأليف لجان لهذا الغرض — خامساً — تأييد المؤتمر لمشروع تكوين الجامعة العربية والمطالبة بسرعة تنفيذ هـذا المشروع - سادساً - مطالبة الحـكومات العربية بمصر والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان باعادة المبعدين ،و بالافراج عن جميع المعتقلين السياسيين الذين لم تثبت اداناتهم - سابعاً - مطالبـة الحـكومات العربيـة بالتعـاون فيما بينها على اتخاذ ما يلزم من الاجراءات التى تكفل منع تسرب أراضى العرب الى اليهود .وقرر المؤتمر النسائى العربى دعوة ملوك العرب،وأمرائه ،ورؤساء الجمهوريات،والقادرين من أبناء مصر ، وأبناء الامم العربية عامة ،الى المساهمة فى تأسيس شركة مساهمة ، الغرض منها اتخاذ التدابير اللازمة للاحتفاظ بالاراضى الزراعية بفلسطين لمالكيها العرب ، ارسال برقية باسم المؤتمر لكل من رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، ورئيس حكومة انجلترا ، تتضمن الاعراب عن تألم سيدات العرب مما يبدو بين آن وآخر من تصريحات تظاهر الصهيونية على حساب حق العرب الصريح ، ورجاء الرئيسين المذكورين ، باسم السلام ، ألا يتأثرا بنفوذ اليهود .

سادتى سيداتى

انا بهذه المطالب لم نتجاوز حد المعقول والامكان،وفى استطاعه مشرعينا اذا أرادوا سعادة الاسرة وطمأنينتها اجابة المؤتمر فيما يختص بمطالب المرأة .كما ان فى استطاعة الدولتين الديموقراطيتين تحقيق مطالبنا المشروعة فى قضية فلسطين ،اذا كانوا يقدرون حقاً صداقة العرب والابقاء عليها — وفقنا الله وإياكم الى مافيه الخير والفلاح فى ظل مليكنا المعظم حفظه الله .

النظم التشريعية وحقوق الانسان فى الأقطار العربية

لسعادة عبد الحميد بدوى باشا

ليس العهد بالكلام فى حقوق الانسان بعيداً ، فهو لا يذهب فى الماضى إلى أكثر من القرن الثامن عشر ، حين أعلنت الولايات المتحدة استقلالها فى سنة ١٧٧٦ بالوثيقة التاريخية المشهورة ، التى صدرت بهذه العبارة « إننا نرى هذه الحقائق واضحة لا ريب فيها ، وهى أن الناس خلقوا سواسية ، وأن خالقهم وهبهم حقوقاً لا يجوز لهم أن ينزلوا عنها ، وأن من بين هذه الحقوق الحياة ، والحرية ، والسعى إلى السعادة ، وأنه لتوفير هذه الحقوق وتأمينها ،تقوم الحكومات بين الناس مستمدة سلطانها العادل من رضى المحكومين ، وأنه اذا أصبح أحد إشكال الحكم هادماً لتلك الاغراض ، حق للشعب أن يغيره وأن يلغيه » .

وكان قد سبق هذا الاعلان فى بريطانيا مواثيق أربعة شبيهة بذلك ،بدأت بالميثاق الكبير Magna Charta فى سنة ١٢١٥ ، وثنيت بالتماس الحقوق Petition of Right فى سنة ١٦٢٨ ، وتلاه فى سنة ١٦٧٩ وثيقة Habeas Corpus عن الحرية الشخصية ، وختمت بقانون الحقوق Bill of Rights فى سنة ١٦٨٩ ، ولكن هذه المواثيق تختلف عن الاعلان الأميركى فى أنها كلها لم تكن تهدف إلا إلى الحد من سلطة الملك ، و إلى العمل على إزالة أسباب التعسف والظلم الذى كان يكابده الاشراف والشعب ، دون أن تصدر عن نزعة فلسفية فى تصوير المجتمع والدولة أو رغبة فى تقييد سلطة البرلمان ، من حيث تمثل فيه السلطة التشريعية . أما الاعلان الاميركى فانه يشف بعباراته عن مذهب نشره كتّاب، نذكرمنهم لوك وروسو ، و بين وmontسكيو ، كان لكتاباتهم فى ذلك العهد شيوع وشهرة وأثر بالغ فى نفوس المشتغلين بالشئون العامة . وهذا المذهب هو مذهب حالة الطبيعة أو الفطرة ، والقانون الطبيعى ، والعقد الاجتماعى الذى يقوم على أن الدولة تتألف بارادة ورضى الافراد الذين لهم حقوق طبيعية ، لا ينزل عنها ولا تسقط ،مهما تقادم الزمن على عدم استعمالها . وليست هذه الحقوق سابقة فى الوجود على الدولة فحسب ، بل ان قيام الدولة لايستطيع أن ينقص منها أو يغض

من أثرها فهى تلزم جميع السلطات التى نظمت لتولى شئون الحكم ، ليس بينها في ذلك فاضل ولا مفضول ، فالسلطة التشريعية نفسها مقيدة بها ، وتلك الحقوق مفروضة عليها .

على أنه حين وضع الدستور الأميركى التعاهدى فى سنة ١٧٨٧ لم يضمن صيغة لاعلان حقوق الناس . وذهب بعض الكتاب فى تعليل ذلك الى أن واضعى الدستور ، انما عناهم تدبير نظام الحكم ، وبيان الحدود فى علاقة السلطات بعضها ببعض بحيث تتفاعل فى انسجام وتجري فى أحكام ، فلم يلقوا بالا لحقوق الانسان ، وان كانت قاعدة فصل السلطات من خير الوسائل لحماية الحريات . وذهب آخرون الى أن أغراضاً عملية هى التي أملت عليهم السكوت عن إعلان الحقوق ، فقد خشوا أن يعترض أهل الجنوب على مثل ذلك الاعلان العام المطلق إذا فهموا أنه ينطوى على إلغاء الرق .

وربما كان التعليل الأدنى للصواب هو الذى قال به هاملتون فى مقالاته Federalist حين كان يرد على المعارضين فى الدستور التعاهدى . وهو أن الدستور نفسه ،من جميع المعانى ولكل الأغراض هو بعينه إعلان الحقوق . وذهب بعد ذلك يعدد الحقوق التى تضمنها الدستور .

على أن الاشارات المنتثرة فى الدستور الى الحقوق لم يرها آخرون كافية،بل قيل ان فريقاً من الولايات رغبت عند الموافقة على الدستور ، أن يكمل ببيان الحقوق بصورة أوفى وأكمل، وذلك منعاً لسوء التأويل ، وقطعاً لاسباب العسف والطغيان .

وقد قدم طلب التنقيح باضافة ميثاق الحقوق « Bill of Rights » الى البرلمان منذ سنة ١٧٨٩ وأقره المجلسان وعرض على الولايات للموافقة عليه (وهى الطريقة المقررة لتنقيح الدستور) وتمت الموافقة عليه في سنة ١٧٩١ .

ويتألف هذا التنقيح من عشر مواد . قرر بها حرية الأديان، وحرية الرأى والصحافة، وحرية الاجتماع ، وحق التظلم ،وحرية حمل السلاح ،إثباتاً لحق الأفراد في إنشاء مليشيا منظمة، وضمانات متعددة من حيث القبض على الاشخاص أو حبسهم أو تفتيشهم ، أو تفتيش منازلهم، ومن حيث محا كمتهم ،كما قرر ألا جريمة ولا عقاب إلا بناء على قانون . وأوجب نظام المحلفين، وعرض للكفالات ونوع العقوبات التى تقرر ، وغير ذلك من الشئون المتصلة بالحرية الشخصية ، كذلك قرر حماية الملك من النزع للمنفعة العامة دون تعويض .

وفى العهد نفسه وبتأثير الآراء والمذاهب عينها، أقر الفرنسيون فى سنة ١٧٨٩ فى ثورتهم المشهورة إعلان حقوق الانسان. والموقف فى البلدين قوى الشبه، فكلاهما ثائر، أميركا ثائرة على بريطانيا، وفرنسا ثائرة على الملكية. والاعلان الفرنسوى، إعلان لحقوق الانسان ولحقوق الأهلين. وقد صدر بأن الناس يولدون أحراراً متساوين فى الحقوق، ويظلون كذلك وأنه لا يجوز أن يكون مناط الفوارق الاجتماعية وأساسها سوى المنفعة المشتركة (مادة أولى)، وأن الغاية من كل مجتمع سياسى هى المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية، التى لا تسقطمهما تقادم عليها الزمن. وتلك الحقوق هى الحرية، والملكية، والأمن، وحق مقاومة الظلم والطغيان (مادة ٢)، ويلى ذلك كلام على سلطة الأمة، وتعريف الحرية والقانون، وحدود أوامره ونواهيه، وبيان عن الضمانات فى شأن الحرية الشخصية، وتأكيد لحرية الرأى، وأحكام مختلفة عن السلطات، والقوة المسلحة، والضرائب.

وعند وضع دستور سنة ١٨٩٣ ضمن إعلاناً للحقوق على طراز إعلان سنة ١٧٨٩ كما ضمن كل دستور عدا دستور سنة ١٨٧٥ أحكاماً شبيهة به، أو إحالة إلى إعلان سنة ١٧٨٩.

وتضمنت الدساتير المكتوبة فى البلاد الأخرى، قديمها وحديثها، بياناً عن الحقوق تارة يوصف بأنه حقوق الانسان وطوراً بأنه حقوق الأهلين وفى هذه الحالة تكون حقوق من عداهم وحرياتهم، مكفولة بالقانون الدولى العام وتكاد أحكام الدساتير المختلفة تكون واحدة فى هذا الشأن.

والدستور المصرى يتضمن فى بابه الثانى والعشرين مادة (٣ — ٢٢) فى حقوق المصريين وواجباتهم وهو يقرر المساواة فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة. لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين. ويكفل الحرية الشخصية ويقيد القبض أو الحبس بأحكام القانون. ويؤكد أن لا جريمة ولا عقاب إلا بناء على قانون. ويقرر حرمة المنازل والملكية، ويطلق حرية الاعتقاد، ويكفل حرية الرأى وحرية الصحافة فى حدود القانون. ويعلن حرية التعليم فى حدود النظام العام، والآداب. ويؤكد حرية الاجتماع، وحق تكوين الجمعيات، وحق الأفراد والهيئات فى خطاب السلطات العامة والتظلم إليها.

ومثل الدستور المصري الدستوري السورى (الباب الثانى مواد ٦ — ٢٨) ودستور لبنان (الباب الثانى مواد ٧ — ١٤) ودستور العراق (الباب الأول مواد ٦ — ١٨) .

وليس للحجاز أو اليمن دستور كما ان الجزائر وتونس ومراكش ليس لها دستور خاص . والمقدر ان أحكام الدستور الفرنسوى سارية عليها .

هذا هو شأن اعلان الحقوق في الدساتير عامة وفي البلاد العربية خاصة ، على ان أمر اعلان الحقوق لم يقتصر على الدساتير . بل قامت فى بعض البلاد الغربية جماعات تعنى به ، وتدعو الناس الى الاهتمام به . وهى ترى ان اعلان الحقوق الذى وضع في أواخر القرن الثامن عشر ، وكررت أحكامه فى دساتير القرن التاسع عشر والعشرين ، لم يعد صالحاً للعصر الحاضر ، فانه لم يقصد به الا تنظيم الديمقراطية السياسية التى تقوم بوجه خاص على الحريات الشخصية ، وعلى حق الاقتراع العام . وان تطور مذهب الفردية Individualism ، والثورة الصناعية وتقدم العلوم ، كل ذلك أحداث اجتماعية ذات خطر ألفتت النظر إلى ناحية أهملت فى إعلان الحقوق الاولى ، هى الديمقراطية الاقتصادية ، وانه يجب لذلك أن يكون إعلان الحقوق ناصراً للديمقراطية من الناحيتين السياسية والاقتصادية معاً .

ففى أميركا اشتغلت جمعية World Citizen Association ، ولجنة دراسة نظام السلم Commission to study the organization of peace ، ومعهد القانون الأميركي American law institute وغيرها بأمر حقوق الانسان ، كما ان بها هيئات رسمية اشتغلت به أيضاً وهي National Resources Planning Board Defense ، وقد وضع كل منها مشروع وثيقة دولية عن تلك الحقوق ، أو أبحاثا ضافية عنه .

وفى بريطانيا اشتغلت به جمعية كامبردج لأغراض السلم ، ولجنة اللورد سانكى ، وفى فرنسا جماعة تسمى Ligue des Droits de il' homme وهى جمعية قديمة كان همها الدفاع عن حقوق الانسان وتعقب مايقع مخالفاً لها أو ماساً بها ، وقد وضعت كذلك مشروعا يشبه فى كثير من نواحيه مشروع لجنة اللورد سانكى .

ومن الهيئات التى اشتغلت بهذا الشأن فى سنة ١٩٢٩ « معهد القانون الدولى » Institut de Droit Internatioal وله فى ذلك مشروع أيضاً .

هذا إلى ما كتبه الكثير من الاساتذة والمؤلفين أو وضعوه من مشروعات مختلفة .

وليس من الميسور عرض المشروعات المختلفة لاعلان الحقوق ، ثم ان بينها تشابهاً كبيراً يشعر بأننا فى سبيل نوع من الاجماع العالمى يتكون ببطء ،وفى أجواء وظروف مختلفة، و يدل على يقظة فى الوعى الاجتماعى لن يكون من السهل إخمادها أو تجاهلها .

وقد نكتفى للتمثيل بهذه المشروعات والأبحاث بمثلين ،أحدهما أميركى ، والآخر بريطانى :

أما الأول فمشروع وضعته لجنة ألفها معهد القانون الاميركى ،سميت لجنة المستشارين وروعى فى تشكيلها أن تمثل الثقافات المختلفة بريطانية ، وأميركية (الولايات المتحدة وكندا) أميركية ، لاتينية ، فرنسوية ، إيطالية ، ألمانية ، من العهد السابق على الحكم النازي ، إسبانية ، روسية ، بولندية ، عربية ، هندية . والمشروع مؤلف من ثمانية عشر مادة تثبت الحريات والحقوق الآتية : —

حرية العبادة ، حرية الرأى ، حرية القول ، حرية الاجتماع ، حرية تكوين الجمعيات ، الحرية الشخصية ، المحاكمة العادلة ، الوقاية من الحبس الظالم ، ألا جريمة ولا عقاب إلا بناء على قانون ، حق الملكية ،والتعليم ،وما يتصل به من حرية وإلزام ،وهى إحدى عشرة حرية وحق التى اصطلحت الدساتير والوثائق القديمة على إثباتها كحقوق الانسان . وقد أثبت المشروع إلى جانبها حق الانسان فى العمل ، وحقه فى أن تكون شروط العمل معقولة ، وحقه فى الطعام والمأوى اللائق ، وحقه فى التأمينات الاجتماعية ، وحقه فى الاشتراك فى حكومة بلده ، والمساواة فى الحقوق والتكاليف بلا تمييز فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين . ويختم تعداد هذه الحريات والحقوق بأنها مقيدة بحريات الآخرين وحقوقهم وبالمقتضيات العادلة للمصلحة العامة فى بلد ديمقراطية .

وقد قدم هذا المشروع إلى مجلس إدارة المعهد فقرر فى فبراير من العام الماضى انه ليس ثمت فى الوقت الحاضر احتمال معقول لأن يقوم المعهد بوضع وثيقة دولية لحقوق الانسان، وان المعهد لا يأخذ على نفسه أن يستحسن المشروع أو أن يستنكره :

وأما الثانى فهو مشروع وضعه الكاتب البريطانى الشهير (ولز) ،وعرضه للمناقشة العامة وبعد أن أبدى عليه ما أبدى من الملاحظات ،جمعت وعرضت هى والمشروع على لجنة يرأسها اللورد سانكي ،وهو من كبار رجال القانون البريطانيين فتولته بالتنقيح والتهذيب،وأخرجته بعد ذلك مؤلفاً من مقدمة وإحدى عشرة مادة .

وفى هذا المشروع إسهاب وتفصيل ،وفيه بعض التخصيص مما دعت اليه حوادث النازيين وافعالهم ، وقد لا يوافق كثير من الناس على بعض أغراضه واتجاهاته ،ولكن له بالرغم من ذلك كله . فضل الايضاح والبسط لمرامى العصر الحاضر فى بلده .

المقدمة : قلبت المائة سنة الأخيرة وجه الحياة المادية بما أحدثت فيهـا من ثورة،فان الاختراعات والا كتشافات غيرت طبيعة المواصلات حول الارض و بين أجزائها المختلفة ، كما غيرت سرعتها، وألغت بذلك المسافات التى كانت تفرق بين دول الأرض وشعوبها ، وزادت القوى الميكانيكية زيادة بالغة،وأطلقت العزيمة الانسانية من عقالها ،فأصبحت قدرة الانسان على معاونة، و إيذاء ،وقهر بعضهم البعض ،وعلى استغلال خيرات الطبيعة وتنميتها ،وعلى استهلاكها،وعلى تبديدها أعظم وأكبر مما كانت فى أى وقت مضى ،ولم يزل مدى التغيير يزيد و يمتد فى ثلث القرن الأخير حتى لقد بلغ ذروته .

لذلك صار من المتعين أن يلاءم بين حياة الانسان ونظمه ، وبين ما استحدثته هذه الاحوال الجديدة من أخطار ومن فرص ، تزداد على وجه الزمان ، وهاهو أولا يجد نفسه مضطراً لأن ينظم التعاون بين أشتات الدول ذات السيادة ،بعد أن كان استقلالها ،بعضها عن بعض،هو المطلب الا كبر ،كما يجد نفسه مضطراً لأن ينقذ الحياة الاقتصادية من التلف الذى حاق بهـا من جراء الاعمال التى لا تهدف الا الى الكسب ، فهو محول فى شئونه السياسية والاقتصادية والاجتماعية على قبول الاشتراك والشيوع ، وهو منفصل بذلك ، بلا هدى ودون مبالاة بسعادته ورفاهيته، والحكومة بين أن تكون شيوعية ،تجعل المرافق بيد الدولة ، أو أن تكون اداة فى أيدى الهيئات الانتاجية والمالية ، ذات الصبغة الاحتكارية .

وقد أصبحت هيئات الدين ،ونظم التعليم ، والصحافة ، خاضعة لارادة الهيئات والافراد الحاكمين بأمرهم ،كما أصبح خاضعاً لنفوذهم ، الآداب والعلوم، وغيرهامن وجوه النشاط الاجتماعى، التى عاشت حتى الآن مستقلة ،لاتعرف إلا وحى نزعاتها الذاتية .

وقد اعتادت البلاد الديمقراطية ،أو البرلمانية ،فى الماضى أن تعارض كل تركيز فى نظام القوة والسلطان، باعادة تأكيد حقوق الانسان ، ولعله لم تعرض مناسبة أولى بهذا التأكيد من الوقت الحاضر، واننا لموقنون بأن التجديد ضرورة لابد منها ولا مندوحة عنها . ونرى جرياً على تقاليدنا

الماضية ، أن نقرن إلى هذا اليقين السمي إلى اعلان الحقوق ،لكى يدبر التجديد والانشاء ، وينفذ فى وضح النهار .

من أجل ذلك نعود إلى طريقة إعلان الحقوق التى أثبت الزمن صـلاحها ، ونريده غير مقصور على بلد معينة ، بل شاملا للعالم أجمع .

(١) حق الحياة : فى هذا الاعلان يعتبر انسانًا كل مخلوق بشرى بلا تمييز بحسب السن أو الجنس ،وكل إنسان وارث لـكل ما جمعه وخلفه السلف ، من موارد وقوات واختراعات ووسائل ، وله الحق بقدر تلك الموارد ،وبلا تمييز بحسب الاصل أو اللون أو العقيدة أو الرأى ، فى الغطاء والغذاء والعلاج والعناية التى يحتاجها لتحقيق النمو الكامل لجسمه ولعقله ،وتبعث فيه صحة موفورة من المهد إلى اللحد ،ومهما يكن من اختلاف صفات الناس أو عدم تساويهافهم يعتبرون جميعًا وعلى وجه الاطلاق سواسية فى نظر القانون ، متساوين فى الحياة الاجتماعية ، متساوين فى حق كل منهم فى احترام الغير له .

(٢) حماية القصر : الاولياء الطبيعيون لمن كانوا فى سن لا تسمح لهم بأن يحموا أنفسهم هم الوالدان ، فاذا لم توجد حماية الوالدين كلها أو بعضها ، فعلى المجتمع أن يرضى ، أو أن يهيء حماية أخرى مع مراعاة تقاليد أسرة الصبي .

(٣) الواجبات نحو المجتمع : من واجب كل إنسان ،لا أن يحترم فحسب حقوق الآخرين فى سائر أنحاء العالم ، بل أن يعمل على تأييدها وعلى تقدمها ، ومن واجبه فوق ذلك أن يؤدى للمجتمع الخدمات الواجبة لتحقيق الاغراض التى لاتكفى لتحقيقها الدوافع الحرة . . الخ

(٤) حق المعرفة . من واجب المجتمع أن يهيء لـكل إنسان القـدر من التعليم الذى يجعله مواطنًا نافعًا ذا اهتمام بالشئون العامة بقـدر ما تيسره مؤهلاته ،كما يجب على المجتمع أن يقرب إليه أسباب المعرفة ، وأن يمكنه من أى تعليم خاص ، عملا على تكافؤ الفرص ، وذلك لاستظهار مواهبه الخاصة فى خـدمة بنى الانسان ، ويجب أن توطأ له طوال حياته كل أسباب العلم بالشئون التى تمكنه من أن يكون حكما على الحوادث والشئون الجارية .

(٥) حرية الرأى والعبادة . لـكل إنسان الحق فى أقصى حرية القول ، والمناقشة ،وتكوين الجمعيات، والعبادة .

(٦) حق العمل . يجوز لـكل إنسان أن يشتغل بأى عمـل مشروع ، بشرط حاجة

المجتمع لذلك العمل ، وأن يكسب منه الأجر الذى تبرره الفائدة التى يجنيها منه الصالح العام، أو رغبة أى شخص أوأشخاص فيما ينتجه ، أو فيما يعمله، أو الأجر الذى ينتجه استمرار نشاطه.

(٧) الحق فى الملك الخاص . لكل إنسان ، فى التمتع بملكه الخاص المكسوب بالطرق المشروعة ،الحق فى الحماية من استعمال القوة أو العنف من جانب الهيئات أو من جانب الأفراد ، أو من أى سعى لحرمانه أو لا كراهه أو تهديده .

(٨) حرية التحرك . لكل إنسان أن يتحرك بحرية تامة فى أنحاء العالم على نفقته ، ولا يسوغ لأحد أن يقتحم مسكنه الخاص أو أى ملحق مسور ذى مساحة معقولة ،إلا باذنه ،إلا أن يكون شخصاً له صفة قانونية يحمل الأمر بذلك طبقاً لأحكام القانون . وله أن يروح ويغدو حيث يريد فى البر أو البحر أو الجو ، فى السهل أو الجبل ، ما دام لا ينتهك حرمة ملك آخر أو يؤذى أو يشوه أو يعطل ما ليس له أو يتداخل فى استعماله ،أو يعرضه للخطر ،أو يسىء إلى سعادة الآخرين .

(٩) الحرية الشخصية . لا يجوز أن تقيد حرية إنسان مدة تزيد على ٢٤ ساعة ، بدون أن يكون متهماً بجريمة يعاقب عليها القانون ، ولا أن يحبس أكثر من ثلاثة أشهر بدون محاكمة، وذلك ما لم تكن سلطة مختصة قد قررت أنه خطر على نفسه أو على غيره بسبب حالته العقلية الشاذة، على أنه يجب أن يؤكد هذا التقرير بعد ٧ أيام ، وأن يعاد فحصه مرة كل سنة على الأقل . ويجب أن يكون كل إنسان بمأمن من الكذب أو تحريف الوقائع الأمر الذى يحرجه أو يسىء إليه ،وإن يكن من الواجب أن يظل خاضعاً لنقد الناس ، ولا يجوز سماع شهادة الشهود فى غيبته ،ولا يجوز أن يستعمل ما يدون فى الدوسيهات الادارية لتسويغ أى مساس بالحرية الشخصية . وألا يعتبر دوسيه أى شخص أكثر من مذكرة لا يجوز استعمالها فى أى محكمة دون تأييدها بالبينة .

(١٠) الحرية من العنف . ألا يلزم أحد بأى بتر ، بغير رضاه ، وألا يعتدى على جسمه إلا لكف اعتدائه ، ولا أن يعرض إلى أى تعذيب أو ضرب أو أى إساءة بدنية ،ولا يجوز أن يعرض إلى أى إيلام نفسى ، أو أن يحبس فى مكان تجوز فيه العدوى ، أو تكثر فيه الهوام والحشرات،أو يكون غير صحى ،أو أن يحشر فى أشخاص معدين . فاذا كان هو نفسه معديا، أو

خطراً على صحة غيره ،ينظف ويطهر ويحجر عليه صحياً ،أو يقيد على أى وجه يرى،ضرورة لمنع أذاه عن الغير .

(١١) حق التشريع . الحقوق المدونة فى هذا الاعلان أساسية ولا يجوز التنازل عنها . على أنه لا مناص فى الشئون الاصطلاحية .كالسير فى الطرق ولحماية النقد من التزييف.أو فى الشئون الادارية.كالتنظيم،وتدابير الصحة العامة،من تقييد مدى هذه الحقوق .

ولا يكون القانون ملزماً للفرد أو الجماعة إلا إذا وضع بصورة علنية وإلا أن يكون قد رضي به صراحة أو ضمناً، كل من بلغ سن الرشد سواء كان ذلك بأغلبية الأفراد أنفسهم مباشرة، أو بأغلبية نوابهم المنتخبين انتخاباً علنياً . . الخ

على أن الحادث الأكبر فى أمر هذه الحقوق هو الميثاق الأطلسى الذى أعلنه الرئيس روزفلت ،ورئيس وزراء بريطانيا ،فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤١،وأطلقاه وثيقة سياسية يراد بها تأليف أمم العالم من وراء أغراض سياسية معينة . وكان قد سبقه رسالة من الرئيس روزفلت وجهها فى ٦ يناير سنة ١٩٤١ إلى الكونجرس قال فيها .

فى العهد المقبل الذى نسعى إلى تحقيقه ، نستشرف عالماً يبنى على حريات أربع لا بد منها ، ولا غنى عنها .

الأولى — حرية القول والتعبير فى كل مكان من العالم .

والثانية — حرية كل إنسان فى أن يعبد ربه على طريقته فى كل مكان من العالم .

والثالثة — التحرر من العوز ،ومعناه على مدى عالمى التفاهم الاقتصادى الذى يوفر لكل شعب حياة صحية آمنة لأفراده فى كل مكان فى العالم .

والرابعة — التحرر من الخوف ومعناه على مدى عالمى تخفيض عام للأسلحة إلى حد ، وعلى وجه ،لا يستطيع شعب معهما أن يقترف أى عمل من أعمال الاعتداء المادى على أي جار له فى أى مكان فى العالم .

وليس هذا حلماً بعالم خيالى سعيد بعيد ،وإنما هى قواعد ثابتة لعالم يمكن تحقيقه فى عصرنا، وفى جيلنا .

وقد أشار الميثاق الأطلسى إلى الحريتين الأخيرتين وحدهما ، على أن الرئيس حين أبلغ ذلك الميثاق إلى الكونجرس قال ،ولست فى حاجة لأن أشير إلى أن إعلان المبادىء التى

قام عليها الميثاق يتضمن ضرورة وحتما حرية القول ، وحرية العبادة ، فانه لا تستطيع أمة أن تعيش فى ظل تلك المبادى إذا لم تجتمع لها هاتان الحريتان فهما جزء لا يتجزأ من جملة الحرية التى نسمى لتحقيقها .

وقد أيدت عصبة الأمم المتحدة هذه المبادىء فى أول يناير سنة ١٩٤٢ حين وافقت على الميثاق الأطلسى .

وقد عرض الكتاب فى تحليلهم لهذا الميثاق للبحث فيما إذا كان المقصود بهذه الحريات وبوجه خاص الحريتين الأخيرتين ، وهى التحرر من العوز والخوف الأمم أو الأفراد ، وربما كانت عبارات الميثاق ورسائل الرئيس روزفلت يفهم منها كلا المعنيين المختلفةعلى أن بيانا ذا مغزى خاص أصدرته إدارة استعلامات الحرب الأميركية فى ٩ أغسطس سنة ١٩٤١ عن الخطط التى يمكن أن تحقق بها الحريات ، يلقى ضوءاً على مقاصد الرجال السياسيين وهذا نصه .

« تنوى الشعوب المتحدة أن تنشىء عالماً يقف فيه الناس معتدلين ، ويسيرون أحراراً . أحراراً ، لا من كل الهموم الانسانية ولكن من الخوف من السلطان المستبد . أحراراً فى التكمل أفراداً ، أحراراً فى إدارة وتكييف أعمالهم .

والحريتان الأوليان ، الرأى والعبادة حريتان متصلتان بالثقافة ، وهما من مميزات الانسان المفكر ، الانسان المنشىء . يكفلهما فى بعض الأحيان الدستور كما هو الحال فى الولايات المتحدة ، حيث يفهمان حق الفهم . وحيث لا تزال القوانين التى تحميهما يعاد النظر فيها باستمرار ، ويحكم ضبطها لتظلا محتفظتين بمعناها الأصلى .

أما التحرر من الخوف والعوز فلا يتعلقان بالثقافة ، وإنما يتعلقان بما يحيط ببنى الانسان ، وهما يصفيان وقائع الحياة ، لا خواطر العقل ، فالانسان آمن أو طاعم ، بحسب ظروف الحياة التى يعيشها .

وليكون الانسان حراً ، يجب أن يعيش فى مجتمع وقى وجوه الضغط والارهاق التى تجعل الناس عبيداً أرقاء ، إرهاق الحكومة المستبدة ، ارهاق عدم التسامح ، إرهاق العوز .

فليس إعلان الحريات الأربع وعداً بعطية يتلقاها الناس في ظروف معينة ، وإنما هو إعلان لخطة للناس أن يأخذوا بها .

والحرية من أى نوع كانت نسبية . والشعوب التى وحد بينها الاتفاق على إنشاء عالم

أفضل من عالمنا الحاضر لانلتمس انشاء المدينة الفاضلة التى لايعوز الناس فيها شيء.فليست هذه هى الغاية،كما ان ذلك ليس فى مقدور الانسان،وانما يوحد بينهم ما اعتزموه من انشاء عالم لايفتقد فيه الانسان أدنى ضرورات الحياة المنظمة اللائقة ، أو يفتقد فيه أسباب النظام ، واحترام النفس والامن ، ولعله مطمح سام ،بعيد المنال،خصوصاً لمن لايستطيع أن يعتقد شيئاً ، ولـكن يشفع له ايماننا بأن الارض خصبة الانتاج، وانها تفيض على الناس النعم والبركات، وان الانسان أصبح يملك الأداة التى تحقق ذلك الغرض ، إذا شاء أن يستعملها .

وهذه هى العقيدة التى أجمع ممثلو ٢٩ دولة على الاخذ بهـا ، وهى ليست وعداً من أى فريق من الناس لأى فريق آخر ، وانما هى الأمم نفسها التى تستطيع أن تخلق الاحوال التى توطد تلك الحريات الضرورية ، وهم الآن يشترونها فى سوق الحرب ، ويدفعون أرواحهم ثمناً غالياً لها ، وفى هذا السوق لاتباع الاشياء بالثمن الرخيص ، ولا يبنى البيت فى أيام ثلاثة ، واننا لنرجو فى هذا العالم المضطرب المتخرب أن يشيد البناء بطيئاً وبقدر وتدبير ، ولـكن إذا اتحدت مقاصد هذه الأمم فان البناء سيرتفع مستقيم العمد موطد الاركان .

والآن وقد خلصت لنا صورة واضحة فى حقوق الانسان ، ومن تطور الرأى فيهـا ، ورأيناها مجملة فى الوثائق الرسمية ، مفصلة فى الاعلانات التى تضعها الافراد والجماعات ، وعرفنا أنهـا لم تعد تقتصر على تقرير « الحريات الشخصية » للأفراد ، من حرية شـخصية بالمعنى الضيق ، ومن حرية عقيدة ، وحرية رأي، بل تتعدى ذلك الى حقوق تكفل للانسـان العمل والكفاف من الرزق ، وجب أن نتساءل عن القيمة العملية لاعلان الحقوق، وأثره ، وقوة إلزامه فى الحياة .

ولعل مما يسهل فهم المسألة ، أن يفصل ما بين الحريات والحقوق التي اصطلحت الاعلانات القديمة على تأكيدها ، والتى دونتها الدساتير ، والحريات ، والحقوق التى أفاض المشتغلون بهذه المسألة القول فيها حديثاً ، على أنها من الأغراض التى يجب العمل على تحقيقها فى السلم المقبل .

أما الحقوق والحريات المدونة فى الدساتير فيختلف حكمها باختلاف البلاد ، ففى أميركا [1] تعرفون أن المحكمة العليا تملك أن تقضى بأن قانونًا أقرته الهيئة التشريعية وأصدره رئيس الجمهورية جاء مخالفًا للدستور ، وانما تفعل ذلك حين ترى مثلا ان قانونًا عطل أو قيد أو خالف بأى وجه من الوجوه حقًا أو حرية أثبتها الدستور فى فصله الخاص ببيان الحقوق ، وانه وان كانت المحكمة لاتقضى ببطلان التشريع فى ذاته وتقتصر على عدم تطبيقه فى خصوص الحالة التي تعرض عليها، فانه يترتب على قضائها أن يصبح القانون غير معمول به ، فلا الحكومة ولا الافراد بعد صدور حكم المحكمة العليا تستطيع أن تطبق القانون أو أن تستند الى أحكامه خشية تجدد القضاء بعدم تطبيقه كلما شكا منه شاك أو اعترض صاحب مصلحة على قيامه .

على انه يجب ألا يبالغ فى قيمة قوانين الحقوق من هـذه الناحية، فان كثيراً من تقريراتها لا يشير الى حريات أو حقوق مطلقة ، وانما يذكر الحرية و يترك للسلطة التشريعية أو القانون تنظيمها و بيان حدودها،ومن الامور المسلمة ان حريات الغير، وان النظام العام(والآداب العامة) والمصلحة العامة،قيود لاشك فيها لحريات الافراد وحقوقهم، وواجب القانون أو السلطة التشريعية تعيين مقتضيات ذلك النظام أو الآداب أو المصلحة ، وهذه المقتضيات هي حدود الحريات وقد تسرف السلطة التشريعية أو تبالغ فى تقدير تلك المقتضيات على حساب الحريات وفى مثل هذه الاحوال يمكن أن يقال ان القانون خالف حكم الدستور، أو انه يترتب عليه تعطيل الحريات التى أعلنها للناس أو تقيد بها . ويمكن إذن للأفراد أن تستعدى المحكمة العليا على عمل السلطة التشريعية ، وقد توسعت المحكمة العليا فى تقرير حقها فى النظر في صحة القوانين من الوجهة الدستورية، ولـكن ليس هذا مجال الـكلام في هذا الشأن ، ويكفى أن نذكر ان القوانين تتعرض للطعن فى صحتها من الوجهة الدستورية إذا انتهكت المساواة ، أو الملكية ، أو الحقوق المكتسبة ، أو أخذت بالاحترام الواجب للعقود .

---

(١) ثار الجدل قديماً فى أميركا فى فائدة مواثيق الحقوق وعرض لذلك هاملتون فى رده على الاعتراضات على خلو الدستور التعاهدى من بيان ميثاق فى ذلك النوع . على أن دفاع هاملتون عن الدستور فى الطريقة التى وضع بها لم يكن يرمى الى أن تقرير الحريات فى الدستور أمر لا ضرورة له او لا فائدة منه وانما يرمى الى انه لا ضرورة لافراد فصل خاص لها . فقد كانت حجته ان الدستور قرر فى ثنايا أحكامه تلك الحقوق ، ومهما يكن فى ذلك فان تنقيح الدستور بعد ذلك باضافة ميثاق الحقوق سنة ١٧٩١ جعل ذلك الجدل أمراً نظرياً .

على ان فضل اعلان الحقوق لايقتصر فى أميركا على ذلك فانهم يرون فائدة كبيرة من حيث تربية الناس على عرفان حقوقهم واحترام حقوق الغير . ومن حيث تنبيه السلطة التشريعية نفسها على خطر تلك الحريات، وإلى وجوب الوقوف دونها وعدم تعديها . والواقع ان تخصيص الحريات بالاشارة، والتفصيل، والاشادة بذكرها ، والتنويه بجلالها وسموها على سلطان أقوى السلطات ، وهي السلطة التشريعية ، كل ذلك من شأنه أن يطبع احترامها فى نفوس الحاكمين والمحكومين،وأن يزيد فى حرص الناس على تقديرها والمحافظة عليها . والحق ان سياج الحريات هو فى نفوس الناس،فاذا انطوت على احترامها فهى كريمة عزيزة المكان، و إذاهانت عليهم هانت على حكامهم كذلك . ومن باب أولى فان لهم من انتهاكها الغنم العاجل،غنم السلطة والاستبداد، وان يكن ذلك غنما غير باق ولا مقيم .

وقد حاولت بعض البلاد الأخرى أن تحذو حذو الدستور الاميركى ، وهى قليل وليس لديها مالدى الولايات المتحدة من تقاليد الحرية والذود عنها والنضال دونها .

أما سائر البلاد الدستورية فلا ترى لاعلان الحقوق ذلك الأثر العملى الذى يمكن من تعطيل القوانين فى بعض الاحوال، لانها وان كانت تسلم بأن القوانين درجات،بعضها فوق بعض، وان الدستور يعلو القوانين الاخرى،فهي لاتولى المحاكم حق التعقيب على أعمال السلطة التشريعية وتحقيق تصرفاتها ، لمعرفة ما إذا كانت مطابقة للدستور أو مخالفة له . وعلى ذلك فمهما يخالف القانون الدستور،ومهما تكن المخالفة صارخة،فلا سبيل للمحاكم لان تعطل فعل قانون أقرته السلطة التشريعية ، ولا قبل لها بذلك ، والحق ان تولية المحاكم مثل هذا السلطان الرهيب يقتضى عادة طويلة على الاستقلال فى الرأى ، والشجاعة الأدبية ، وإعداداً غير هين ، واختياراً دقيقاً لهيئة القضاء .

وإذا كان هذا الأثر لاعلان الحقوق يفوت غالبية البلاد الدستورية ، فانه لايفوتها أثره الآخر الخاص بتنبيه الحكام الى إلزام حدود الدستور وأثره فى تربية الجمهور وتبصيره اياهم بحقوقهم يطالبون بها ويعملون على حمل المشرع على احترامها .

وهذان الأثران وان لم يكن لهما الا قيمة أدبية لا قانونية ، لايجوز أن يهون من شأنهما ،فقد خلقا فى البلاد الاوربية،والبلاد التى أخذت عنها النظام الدستورى،أموراً ومعانى تعتبر الآن من بديهيات القانون العام ، وهى تجرى مجرى العرف الثابت ، نذكر منها على سبيل المثال :

ان القوانين لاتعلق الحريات العامة أو توقف الانتفاع بها على إذن السلطة التنفيذية ، وآية ذلك ظاهرة فى حرية الصحافة،وحرية الاجتماع، وتكوين الجمعيات. وقد كان اشتراط مثل ذلك الاذن شائعاً فى كثير من البلاد، كذلك لايشترط فى استعمال تلك الحريات شروط مالية كتأمين، أو غير مالية، مما يكون من شأنه أن يعوق استعمالها أو تقييدها . فاذا علق استعمال الحريات على شيء، فهو أدخل فى الاجراءات البسيطة التى تمين السلطة التنفيذية على مراقبة استعمال الحريات، وتمكينها من تنفيذ القوانين. والاصل فى الحريات ان الفرد يستعملها على مسئوليته ، سواء أكانت حرية في شخصه ، أم فى عقيدته ، أم فى رأيه ، أم فى عمله ونشاطه . وهو لا يحاسب الا على ما يمكن أن يأتيه من أعمال مادية ، فليست النزعات أو خواطر الفكر محل حساب ، وليست كذلك جرائم الرأى .

ومن تلك البديهيات انه — فيما عدا العقود التى يبرمها الافراد برضاهم — لا سبيل لالزام الافراد بتكاليف للدولة أو للغير الا بقوانين ،ولا تستطيع التصرفات الادارية، سواء أكانت عامة أم كانت قرارات فردية،أن تفرض شيئاً من تلك التكاليف، الا فى حدود القوانين، وتنفيذاً لها .

وكذلك لايملك الا القانون،و بعبارة أخرى السلطة التشريعية،أن تفرض جزاء سواء أكان جنائياً ، أم مدنياً ، أم إداريا .

ويجب علي أى حال التمييز بين القيود التى تلحق الحريات، على سبيل التعسف أو الاسراف، فى تقدير دواعي النظام العام والمصلحة العامة،والقيود التى يستحدثها الشارع تحقيقاً لمعنى التضامن الاجتماعي والعدالة الاجتماعية،سواء كانت قيوداً واردة على حق الملكية فى صورة ضرائب أو فى صور أخرى ، أم كانت قيوداً تتصل باشراف الدولة على مختلف وجوه النشاط الانسانى للكف أو التخفيف من تناحر الناس وتنازعهم على الارزاق .

ومهما يكن من ذلك كله ، فانه لاشك فى أن الحرية حاجة أساسية من حاجات الطبيعة البشرية .وان حمايتها وظيفة أساسية كذلك من وظائف الدولة ، فهي إذن أمر خاص بكل أمة وبالحكومة القائمة فيها ، غير انه منذ شوهد ان قتل الحريات فى بلد يجوز أن يكون تمهيداً لنزعات الشر فيه،ومقدمة لمناوأة البلاد الاخرى العداء، والاعتداء عليها ، واثارة الحروب ، ثبتت فكرة ان الحريات العامة لايجوز أن يبقى العناية بها، والدفاع عنها، قاصراً على سلطات البلد، التى قد تكون

هي الجانية عليها،وان الدفاع عن الحرية الانسانية يصح أن يدخل فى اختصاص القانون الدولى، وأن يكون للدول شأن فيه .

ولا يخفى ان القانون الدولى،بوجه عام،لايعرف أفراد الناس ، ولايعترف الا أفراد الدولة، فليس لآحاد الناس أن يلجئوا اليه أو أن يحركوا اداته . وكما ان دستور كل بلد يعترف لاهله بحقوقهم في الحياة ، والحرية ، والمساواة ، والملكية ، فان دستور الدولة، أو القانون الدولى ، يعترف لافراده ، وهم الدول ، بحريات وحقوق شبيهة بتلك ، هى : حق السيادة،والاستقلال، والمساواة ، وحق الدولة على أرضها . وهذه الحقوق تنفى اشتغال بلد بحالة رعايا بلد آخر . على أن القانون الدولى عنته قديماً حقوق الأفراد ، حين يكون هؤلاء الافراد مقيمين فى بلد غير بلدهم ، وجرى العرف بالتسليم بحق الدولة التى يكونون من رعاياها بحمايتهم فى الخارج. وأصبحت بذلك حقوقهم وحرياتهم بمأمن من العسف ، بل غلت الدولة فى بعض الحالات فأصبحت حالة أولئك الاجانب خيراً من أحوال الأهلين . ثم اتسع نطاق الحماية الدولية ، فشمل الرقيق، ثم شمل الاقليات الدينية فى الدولة العثمانية . وأخيراً ابتدعت معاهدات الصلح التى تلت الحرب العظمى الماضية ، نظام الانتداب ، والاحكام الخاصة بحماية حقوق الأقليات ، وأصبح يترتب على تلك المعاهدات ان قد يكون لدولة أن تحتج على انتهاك حرمة أحكامها ، ولو كان هذا الانتهاك فى صدد أحد رعايا الدولة التى يقع عليها الاحتجاج .

وقد بدا لبعض الكتاب أن يعتبروا تلك السوابق نواة الحماية الدولية لحقوق الانسان ، فلو ان تلك الحقوق دونت وأعلنت فى وثيقة دولية عامة وقعتها جميع الدول لصحت أولا سنداً قاطعاً لحق الدولة فى حماية رعاياها فى الخارج والاعتراض على الحريات التى تمس حرياتهم وحقوقهم، وقد يجوز بسبب عمومها أن تعتمد سنداً كذلك لحق كل دولة فى الاعتراض بالطرق الدبلوماسية على تصرفات لاتنال رعاياها بل تمس رعايا دولة أخرى،أو رعايا الدولة التى يقع عليها الاعتراض أفرادا أو جماعات، ولكن التسليم بمثل هذا الحق من شأنه أن يفضي الى اغراء بعض الدول بالتدخل فى شئون البلاد الاخرى . ولعل فيما كان يجرى بالنسبة لتركيا على أثر معاهدة برلين فى سنة ١٨٧٨ عبرة تقضى بتجنب فتح هذا الباب . ولذلك لا يرى الكتاب الداعون للحماية الدولية لحقوق الانسان مندوحة عن انكار تدخل الدول بالطرق الدبلوماسية لهذا الغرض، ويقترحون أن يكون أمر التدخل محصوراً فى هيئة دولية ، كلجنة الانتدابات فى عصبة الامم مثلا،

فان خشى أن يتأثر أعضاؤها بدوافع سياسية ، ورئى انها لا تكون مأمونة على مثل تلك الحقوق، فليكن أمر التدخل بيد هيئة قضائية دولية تنصف الشاكين ولو كانوا من رعايا الدولة الظالمة ، وتأخذها باحترام الحدود المرسومة فى تلك الوثيقة العامة .

ولا شك ان الغاية التى يطمح لها أمثال هؤلاء الكتاب بعيدة المنال ، وقد لا تكون مستحبة لما ينطوى فيها من أسباب الاضطراب التى تنجم عن تدخل هيئة دولية خارجية بين الدولة ورعاياها، لاسيما إذا كانت تلك الهيئة سياسية . وقد يدل اقتراح هذه الوسائل على الاكبار والتقديس لحقوق الانسان . وهذا الشعور إذا استقر وثبت فى قلوب المشتغلين بالشئون العامة فى الدول المختلفة لاشك كفيل بأن يجد أهل كل بلد الضوابط الملائمة لالزام كل سلطة حدها ، وتكون حماية الحريات والحقوق بذلك قد تمت على يد أهلها ولم تفرض عليهم من الخارج . وقد لا يكون الاعتراض على تولية هذه الحماية هيئة قضائية دولية قويًا كالاعتراض على توليتها هيئة سياسية ، ولكنه اعتراض لايخلو مع ذلك من الوجاهة والخطر .

والحقوق التى تقررها الدساتير فى البلاد العربية ، سواء فيها حق المساواة فى الحقوق والتكاليف ، أم الحريات، تقرر لجميع المواطنين، لاتميز بينهم فيها بسبب الاصل أو اللغة أو الدين. فليست الاقليات فى تلك البلاد بحاجة من حيث تقرير الحقوق الى مزيد . وانما الحاجة بالنسبة للاقليات والأغلبية معًا تكون ماسة لحماية تلك الحقوق لا لتقريرها . أى للحيلولة دون انتهاك سلطات الدولة لحرمة تلك الحقوق . وسبيل ذلك أن توفر الضوابط للافراد لاستعداء المحاكم على تصرفات السلطة التنفيذية: وهذه الضوابط متوفرة ولكنها ليست تامة، ولا يزال من الممكن تهذيب الطرق التى ينتصف بها الافراد من عسف الادارة وزيادة وسائل الانصاف .

أما استعداء المحاكم على تصرفات السلطة التشريعية على الطريقة الاميركية فيحتاج إلى إعداد أطول وسبل أدق ولكننا لانيأس من بلوغه .

كلامنا حتى الآن فى الحريات التى قررتها الدساتير واعلانات الحقوق ، وهى بوجه عام حريات سلبية لاتقتضى الدولة لتوفير الحماية لها الا أن تتركها ولا تتعرض لها ، ولكن الحريات التى أضافتها الابحاث الحديثة ، والتى ترمى الى توفير العمل للأفراد ، وكفالة أرزاقهم فى حدود متواضعة طبعًا، وتأمين صحتهم، وزيادة تثقيفهم . هذه الحريات من نوع آخر، إذ هى تقتضى من

الدولة أعمالا ايجابية ، ولا يتيسر على الدولة تحقيقها إلا إذا ازدادت مواردها واتسعت وجوه نشاطها.

وهذه الديمقراطية الاقتصادية التى ترمى الى توفير كرامة الانسان وتحقيق رفاهيته ، بعد أن وفرت له الديمقراطية السياسية حرياته، لا تنال طفرة كما كان الحال فى حريات الدساتير الاولى، بل هى تلتمس أسبابها ، وتمهد وسائلها تدريجاً ، ويجب أن تعالج بالصبر و بعد النظر . وهى على خلاف الديمقراطية السياسية ليست بطبيعتها مسألة داخلية لاتعنى الا أهل البلد الواحد . فان المبادلات الاقتصادية جعلت من العالم جسما واحداً بحيث إذا تألم جزء تداعت له سائر الاجزاء . ويجب إذاً لتحقيق تلك الديمقراطية أن تتعاون الدول و يأخذ بعضها بيد بعض ، فبالتعاون يشتد عضدها ويحسن حالها . ولا حاجة فى سبيل إقناع الدول بضرورة التعاون أن يخاطب فيها روح التجرد من المنافع و إيثار الغير ، بل يكفى أن تخاطب فيها الأنانية، فان الأنانية نفسها تجعل ذلك التعاون واجباً . والواقع ان رفع مستوى الحياة فى أى بلد ينبغى فيه زيادة قوة الشراء للفرد العادى ، ولا يتيسر ذلك إلا إذا زيدت الموارد، وحسن التوزيع . وزيادة الموارد مرهونة بأن ينصرف كل بلد الى مزاولة أقصى ما يستطيع إحسانه من أسباب الانتاج ، مما يكفى لأن يوفر لسكانه درجة الرفاهية المطلوبة . وإذا قصرنا النظر على البلاد العربية فاننا واجدون بها موارد لا حصر لها لما تستعمل بعد ، بل الزراعة التى هى فى كثير منها قاعدة الحياة وأساس الثروة قابلة المزيد والتحسن ، ناهيك بالصناعات و باستخراج المعادن والزيت من بطن الارض ، فاذا استثمرت تلك الموارد الى أقصى حدود الطاقة ، اتسعت أرزاق أهل تلك البلاد وأصبحوا قادرين على أن يشتروا من غيرهم السلع التى لا يحسنون صنعها وينتجها غيرهم . والتى أصبحوا يستشعرون بما حدث لهم من اليسر حاجة اليها ، و بذلك ينشأ طلب جديد لسلع البلاد الأخرى وهكذا دواليك ، رخاء كل بلد يجر رخاء غيره . وقد كانت الانانية فى صورتها القديمة تأبى على بعض البلاد إلا أن تجعل غيرها ذليلا فقيراً خشية أن يكون إثراؤه مغنياً له عن سلع البلاد الصناعية السعيدة ، أما التعاون الواجب فقد يكون بالمال وقد يكون بالرجال ، ولكن لعل أهم مظاهره حسن تنظيم شئون العالم واستشعار الدول معنى التضامن الانسانى .

وإذا كنا قد أنكرنا أن تكون حماية الحريات فى كل بلد أمراً مشاعاً بين الدول، فاننا لندعو

ونلح فى أن يكون تحقيق التحرر من العوز أمراً تتعاون فيه الدول وتتساند وأن تعدل كل منها عن سياسة « بعدى الطوفان » .

وقد أجمع القوم على ان التحرر من الخوف يقتضى حشد كل القوى ، واجتماع الكلمة ، وحسن توزيع أسباب الدفاع ، والوقوف فى وجه المعتدى ، وليس التحرر من العوز بمختلف عن التحرر من الخوف .

ولا يسعنى ، وأنا أتحدث اليكم فى مؤسسة أميركية الا أن أنوه بما فعلته وتفعله أميركا فى نشر رسالة رفع مستوى الحياة لبنى الانسان وتأمينهم من الخوف .

وقد كانت رسالة أميركا الأولى فى أواخر القرن الثامن عشر ، تلك الرسالة التى أشاعتها الثورة الفرنسية فى العالم ، وهى رفع الظلم والطغيان عن الانسان ، واستثمار الحرية والمساواة ، وهذا أول صور الكرامة الانسانية . وقد مضى القرن التاسع عشر ، وصدر القرن العشرين ، والعالم يجاهد فى تحقيق تلك الرسالة ، ويتداوله فى ذلك السبيل النجاح والفشل ، ولكننا نستطيع أن نشهد بأن العالم ، خصوصاً بعد التجربة العنيفة ، والمحنة القاسية التى يجتازها الآن ، أصبح ناضجاً لمعنى الحرية ، ولعله منذ الآن ماض فيها قدماً .

ولا شك فى أن الرسالة الجديدة ، رسالة التحرر من العوز والخوف ، مكملة للرسالة الاولى ، ونتمة طبيعية لها ، فان الفقر والخوف يذهبان بكل ما تأتى به الحرية من مزايا . وهل من خير فى حرية يذل صاحبها الفقر ، أو من خير فى حرية يزعزعها الخوف ؟ .

وان كثيراً من الناس ليشك في صدق التصريحات السياسية عما بعد الحرب وعن مستقبل السلام فى العالم ، ويعتقد ان التناحر والتنازع بين الدول سيكون أحر مما كان ، ويتهم بالسذاجة كل من يأخذه سحر هذه الاقوال ، وتستهويه تلك الآمال ، ولكن قد يتغلب الطبع وقصر النظر حيناً قصيراً ، فيسير العالم سيرته الأولى . على اننى لا أستطيع أن أسلم بأن أهوال هذه الحرب ستنسى ، أو ان عظتها البالغة ستمحى . وأرى من الطبيعى أن أشاطر الرئيس روزفلت أمله حين يقول ، وهو يبلغ الكونجرس الميثاق الاطلسى ، فيتكلم ، لا عن الولايات المتحدة وحدها ، بل عن العالم أجمع :

« وليس هذا حلماً بعالم خيالى سعيد بعيد ، وانما هى قواعد ثابتة لعالم يمكن تحقيقه فى عصرنا ، وفى جيلنا »


Princeton University Library
32101 073827238


المطبعة العصرية